

أوروبا فى العصور الوسطى
المفهوم والحضارة


تمثال مقدس من الذهب

تأليف
أ.د. إسحق عبيد
كلية الآداب - جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
منى حامد عمارة


كرسى أسقف رافينا ماكيسميناس ق٦

٩٤٠
إس أو

إسحق عبيد.
أوروبا فى العصور الوسطى: المفهوم والحضارة/ تأليف إسحق عبيد. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٦.
١٠٠ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ١).
ببليوجرافية: ص ٩٩.
تدمك: ١ - ٢١١٤ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - تاريخ روما. ٢ - الإمبراطورية الرومانية. ٣- سقوط روما. أ - العنوان. ب- السلسلة.

رقم الإيداع: ٨٣٥٧ / ٢٠٠٦

دار الفكر العربى

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

اللجنة الاستشارية

لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

مديرا التحرير: الكيميائى: أمين محمد الخضرى
المهندس: عاطف محمد الخضرى
سكرتير اللجنة: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم
التصميم والإشراف الفنى: محيى الدين فتحى الشلودى

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

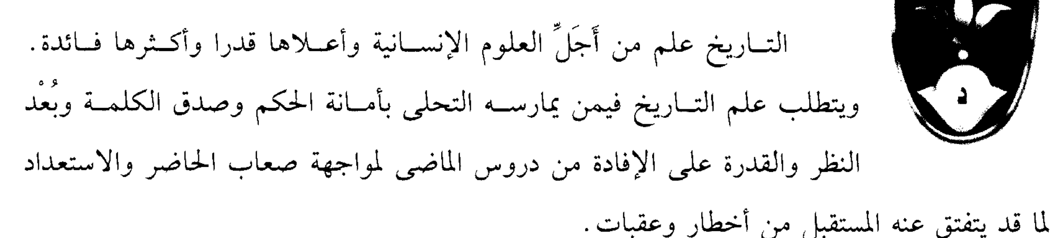
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com



تقديم السلسلة



التـاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسـانية وأعـلاها قدرا وأكـثرها فـائدة. ويتطلب علم التـاريخ فيمن يمارسـه التحلى بأمـانة الحكم وصدق الكلمـة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

إن الروايات التاريخـية قد تـتشابه فى بعض أجـزائها على مدى الدهـور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسيـة وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحـقيقـة كثير من الـهيئات الثـقافيـة، فجعلوا للتـاريخ حقه من الاهتـمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسهـا الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجـال خدمة الثقافة العربيـة. والتى وضعت مشروعا للثقافـة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لـهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخـصصين داخل الجامعات العربية وخارجهـا. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميـمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التـاريخية ليسعدها أن تقـدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور





يعرض هذا الكتاب للأسباب التى أدت إلى سقـوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤١٠م على أيدى الجرمان، وهى أسباب تتصل بالأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية المتدهورة، لدرجة أنه يتضح لنا القول بأن روما قد سقطت من الداخل.

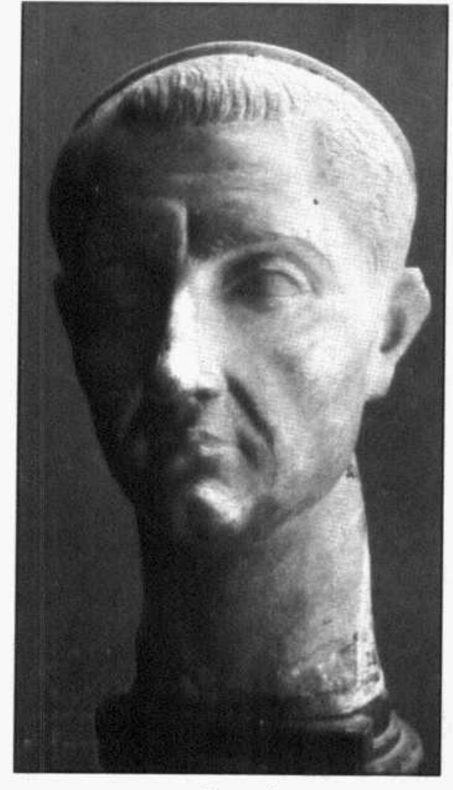
وهناك دراسة للعالمين الجرمانى والرومانى اعتمدت على المصادر والأدبيات المعاصرة، وقد اعـتمـدنا على آداب العـصر لتلـمس آلام الناس البسطـاء وآمالهـم، وذلك بعـيـدا عن السجـلات الرسمية التى لا تعكس إلا رؤية القياصرة والأباطرة.

ثم هناك وقفة مع جماعة الجرمان الفرنجة الذين أقاموا مملكتهم ثم إمبراطوريتهم تباعا على أنقاض الإمبراطورية الرومانية المتوفاة. والشـخصية المحورية هنا هى كارل العظيم أو شارلمان بما له وما عليه.

وأخيرا هناك دراسة لعـالم الإقطاع بفرسانه وأقنانه وقلاعه وعتـوده الإقطاعية، مع مزيد من الضـوء على التعـاسة والفـاقة التى كـان يعيش فـيهـا أقنان أوروبا لمئات من السنـين، حتى قـاموا بثوراتهم فى كل من فلاندرز وإنجلترا وفرنسا لتصفية الحساب مع السادة الإقطاعيين وزبانيتهم!

الفصل الأول
روما تنعى من بناها




يوليوس قيصر

بومبى وقيصر

فى سنة ٤٩ ق م اشتعلت الحرب الأهلية بين الزعيمين الرومانيين بومبى وقيصر، وقد حلت الهزيمة ببومبى فى معركة فرسالوس ببلاد اليونان، ففر إلى مصر، حيث قتل فى العام التالى. وبعدها بسنوات أربع أعلن يوليوس قيصر دكتاتورا مطلقا، على أن الغيورين على التقاليد الجمهورية فى مجلس السيناتو قاموا باغتياله فى قلب المجلس فى ١٥ مارس ٤٤ ق م.

مارك أنطونى

واشتعلت الحرب الأهلية من جديد بين معسكر أوكتاڤيان ومارك أنطونى ولبيدوس من ناحية، وبين بروتوس وكاسيوس من ناحية أخرى. وقد جرَّ هذا الصراع الدامى أطرافا أخرى إلى ساحة القتال، فقد وقف البارثيون مع معسكر بروتوس، بينما ألقت مصر بثقلها وراء مليكتها كليوباترا وعشيقها الرومانى مارك أنطونى. وبعد هزيمة بروتوس وكاسيوس فى معركة فيلبى سنة ٤٢ ق م ببلاد اليونان، كون المنتصرون حلفا ضم أوكتاڤيان ومارك أنطونى ولبيدوس. ولكن الخلاف سرعان ما دبَّ بين الحلفاء، فأُزيح لبيدوس سنة ٣٦ ق م، ثم ما لبث الخلاف أن نشب بين أوكتاڤيان ومارك أنطونى. وفى سبتمبر ٣١ ق م ألحق أوكتاڤيان الهزيمة بمارك أنطونى وحليفته كليوبترا فى موقعة أكتيوم البحرية ببلاد اليونان أيضا. وبانتهاء أنطونى وكليوبترا خلا المسرح تماما لأوكتاڤيان.

أوكتاڤيان أغسطس



كان أوكتاڤيان حفيدا لجوليـا شقيقة قيصر، وقد تبنـاه قيصر وخلع عليه اسمه وأعده لكى يخلفه فى الحكم من بعده. أقدم أوكتاڤيان على خطوات هامة فى إدارة إمبـراطوريته الشاسـعة التى امتـدت من اسكتلندة فى الغرب حـتى نهر الفرات فى الشرق، ومن نـهر الدانوب شمالا حتى بلاد النوبة جـنوبا، فخفض فيالقه من ستين إلى ثمانية عشر فيلقا، وقام بتوطين أكثر من مائة ألف من قدامى المحاربين الرومان فى الولايات الإمـبراطورية فى الشمال الأفريقى والشـام وآسيا الصغـرى. وقد تحملت الخـزانة المصرية تغطية نفـقات هذا التوطين بعـد أن أصبحت مـصر ولاية رومانية.

هذا، وقد شغل أوكتاڤيان منصب القنصلية دون انقطاع مـا بين عامى ٣١، ٢٣ ق م، ثم خوله السيناتو بسلـطات عليا على كل فرق الجيش فى الولايات الإمبـراطورية. واختار أوكتاڤيان لنفسه لقب «المواطن الأول» (Princeps)، ثم خفض عدد أعـضاء السيناتو من ألف إلى سـتمائة عضوا، مع الاحتفـاظ لنفسه بحق تعيين من يراه مناسبا للعضوية. وفى نهاية الأمر صار أوكتاڤيان - أو أغسطس (المهيب) كما صار يعـرف - يجـمع فى يديه سلطـات القـائد الأعلى للجيوش الرومانية وصـلاحيات التربيون أو القاضى الأكبـر. وفى سنة ١٣ ق م اتخذ لقب «الكاهن الأكبر» (Pontifex Maximus)، وهكذا جمع فى شخصه السلطتين الزمنية والدينية.

آداب العصر

ومع الإحـساس بالسـلام فى الإمبـراطورية، ازدهرت الفنون والآداب على يد عديد من كتـاب العصر وعلى رأسهم ڤرجيل، وليڤى، وهوراس، وأجريبا، ومايكيناس. وقد أنتج الشاعر ڤرجيل ملحمـته الخالدة «إينياس» مـؤسس مدينة رومـا الأسطورى، وجـعل من بطله إينيـاس المثل الأعلى للكفـاح ومغـالبـة تقلبات الأوقـات والحكمـة والتقـوى والتفـانى من أجل الواجب. أما ليڤى فقـد تَقَفَّى تاريخ روما منذ البدء حتى عصر أغسطس، مُعرجا على لحظات

الإمبراطور أغسطس

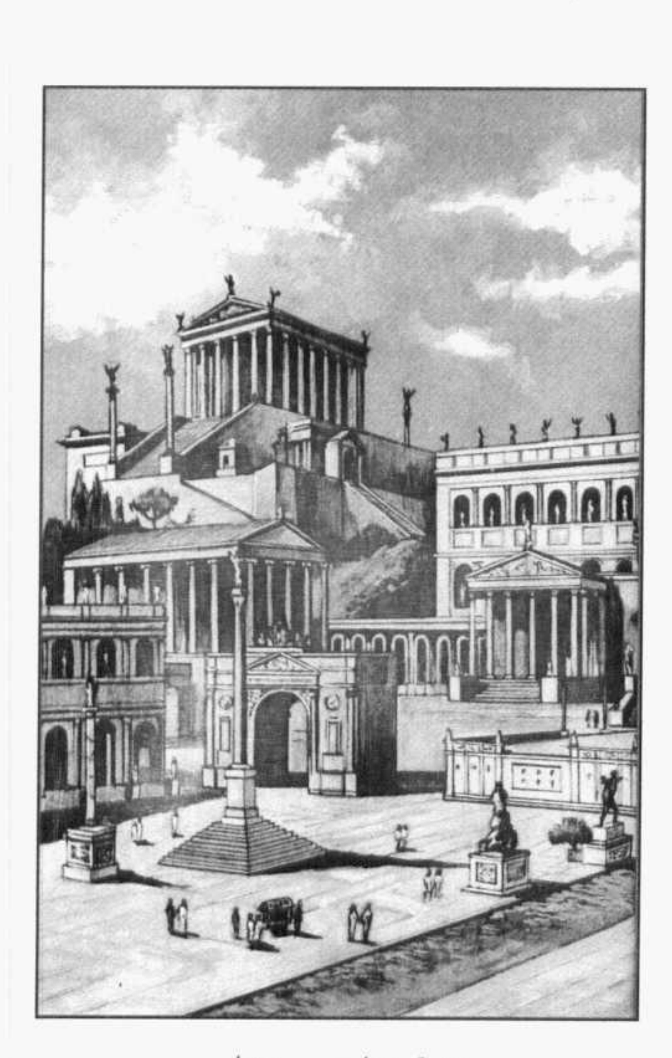
الفخار والبطولة فى سجلاتها. وخاطب فى «أناشيده» فضائل الرومان وبأسهم، موصيا بضرورة الرجوع إلى طرائق البساطة الأولى.

وكذلك ارتقت الفنون التشكيلية فى عهد أغسطس، ومن روائع العصر:

مذبح السلام الرخامى، وميادين السوق، ومعابد قيصر وچوليا وإميليا، ومنصة الخطباء. هذا إلى جانب المسارح والحمامات العامة والمتنزهات والبحيرات الصناعية والمكتبات. ونظرا لاستخدام الرخام بكثرة فى أعمال البناء والترميم فى عصر أغسطس، فإن كاتب سيرته سيوتونيوس قد لاحظ أن سيده قد تسلم روما وهى مبنية من الطوب ثم تركها وهى من الرخام.

الصراع على الحكم

توفى أغسطس سنة ١٤م، فخلفه فى الحكم ابنه بالتبنى طيبريوس (١٤ ـ ٣٧م)، وكان جنديا ماهرا وشجاعا، وسار على درب أغسطس فى سياسته الخارجية والداخلية. ولكن خلفاء طيبريوس الثلاثة كانوا سُبَّة فى جبين البيت الحاكم، فقد كان أولهم مجنونا (كاليجولا ٣٧ ـ ٤١م)؛ وكان الثانى تافها (كلوديوس ٤١ ـ ٥٤م)؛ والثالث معتوها متوحشا (نيرون ٥٤ ـ ٦٨م). وبمقتل نيرون انتهى بيت قيصر ـ أغسطس، فظهر على المسرح أربعة قادة يتكالبون على العرش، وهلك فى الصراع خمسون ألف نسمة فى مدينة روما وحدها فى عام واحد. وانتهى الأمر بفوز ڤسباسيان (٦٩ ـ ٧٩م)، وبدأ سلسلة من الأباطرة الأقوياء وهم: تيتوس، ودوميتيان،



مدينة روما - رسم تخيلى



ونيرڤا، وتراجان، وهادريان، وأنتونينوس بايوس، ثم ماركوس أوريليوس (٧٩ ـ ١٨٠م). غير أنه فى سنة ١٩٣م فرض الحرس البرايتورى ضابطا اسمه برتيناكس للجلوس على العرش الإمبراطورى، وبذلك بدأت سابقة خطيرة فى الحكم الرومانى. ويلاحظ أنه من بين الثلاثة وعشرين إمبراطورا الذين حكموا فى القرن الثالث حتى مجىء الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤م)، هلك عشرون منهم فى الصراع على كرسى الحكم. وخلال هذا الصراع على السلطة دمرت مدن أنطاكية، وبيزنطة، وليون، وأعدم عدد من أعضاء السيناتو.

ولعل من أهم التغيرات التى طرأت على المجتمع الرومانى فى تلك الحقبة أن عددا وافرا من أبناء الطبقة الوسطى تحت وقع الضرائب الثقيلة قد تدنوا إلى مستوى الطبقات الدنيا (Humiliores)، وهكذا بعد أن كان المجتمع الرومانى يضم طبقات ثلاثا: عليا ووسطى ودنيا، لم يعد هناك غير طبقتين العليا والسفلى واختفت تماما الطبقة الوسطى.

من التحولات الخطيرة أيضا فى القرن الثالث للميلاد، انهيار نظام دويلة المدينة (Polis)، وسقوط سماتها الحضارية من دستورية وعدالة اجتماعية وسيادة السلام. وقد كان طبيعيا مع هذا التدهور أن تتحول أحوال الشعب الرومانى إلى الغوغائية، كما تحكم البرابرة الجرمان من الضباط المرتزقة فى مصير الحكم والحكام.

الحرس الإمبراطورى

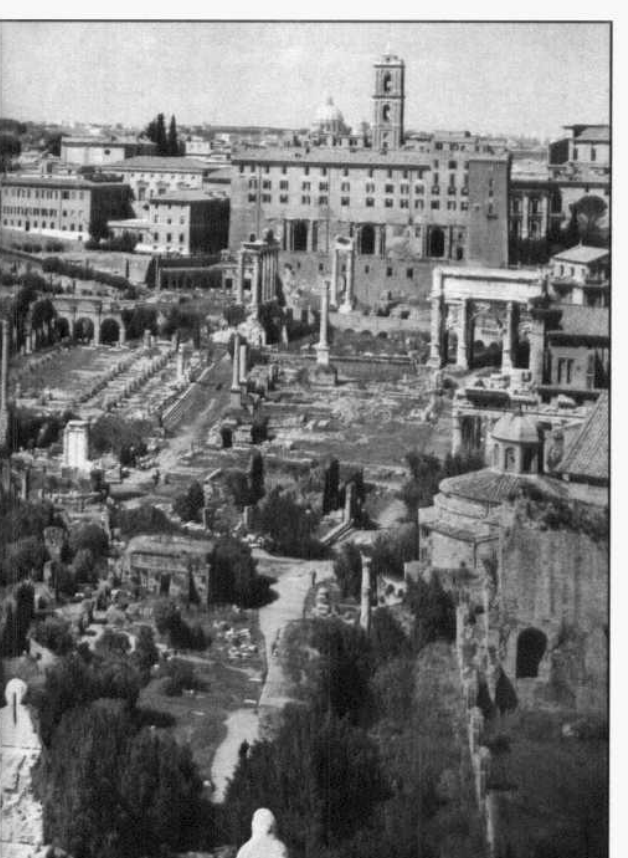
ولعل أخطر التحولات جميعا ما حدث للمواطن الأول، أى الإمبراطور نفسه، ففى أيام مجده الأولى كان يملك كل السلطان الدنيوى والدينى، وكان عقاب من يجرؤ على مخالفته الإعدام أو مصادرة الأملاك، أو الانتحار. على أنه عندما تحلل نظام الحكم وصارت الأمور بيد الحرس الإمبراطورى من الجند المرتزقة، صار الإمبراطور مجرد دمية فى أيدى هذا الحرس الذى بات يخلع ويقتل ويعين من يشاء من الجنرالات وأعضاء السيناتو للجلوس على العرش؛ وذلك مقابل رشوة دسمة لقادة الحرس. ومع هذا التدهور انقطعت الصلة تماما بين الحاكم والرعية، وانتهزت المجالس المحلية فى الولايات الفرصة للنهب والسلب واكتناز المال. ومع هذا التدنى السياسى والاقتصادى والاجتماعى لجأ الناس إلى الملذات الحسية هروبا من الواقع المر الأليم، وغصّ المجتمع الرومانى بالانتهازيين والمرابين والعاطلين ومحدثى النعمة، وهذه جميعا علامات الانفصام ومؤشرات إلى اقتراب النهاية.

المجالدون

ولكى نستشف روح العصر علينا أن نقلب فى آدابه وفلسفاته السائدة فى حديثه عن رياضة المجالدين (Gladiatoers) وهى الرياضة التى ملكت على قلوب الرومان من خاصة وعامة. يقول

٦

ترتوليان (قرن ٣م) بأن الرومان باتوا يشتهون الموت؛ «فالرجال يضحون عبثا بأرواحهم، والنساء يضحين بأجسادهن، وفى الحالين امتهان لكرامة الإنسان روحا وجسدا».



آثار مدينة روما

ويذكر فى هذا الصدد أنه فى سنة ١٧٤ ق م تجالد أربعة وسبعون رجلا على شرف روح والد تيتوس فلاڤيوس. وبعد انتصار قيصر على بومبى فى واقعة فرسالوس، أقام قيصر حفل مجالدات بين ستمائة من الرجال ابتهاجا بالنصر، وكان قيصر يريد المزيد من المجالدين لولا اعتراض السيناتو على ذلك. وأما أغسطس فقد بلغ المجالدون فى عهده عشرة آلاف من الرجال، وبعد أن ضم الإمبراطور تراجان ولاية داكيا إلى حظيرة الإمبراطورية، ظل آلاف المجالدين يقتلون واحدهم الآخر فى احتفال دام أربعة أشهر كاملة.



لوحة من الفسيفساء - تصور «الجلادين» - العصر الرومانى

كانت المجالدات تتم فى أول الأمر فى الساحة العامة لمدينة روما، وكان ضحاياها من المحكوم عليهم بعقوبة الإعدام، أو من الأسرى فى الحرب من غال، وأسبان، وتراقيين، وجرمان، وأغارقة، وسوريين، وآسيويين. ومع انهيار الجمهورية الرومانية وقيام العصر الإمبراطورى بدأ الرومان أنفسهم يشاركون فى المجالدة. ويعكس هذا التحول شعورا باليأس واشتهاء الموت لدى الرومان، كما عبر عن ذلك الكاتب كبريان (قرن ٣م). وكان على المجالد أن يقسم يمينا بأن يتحمل ما يحل به من جرٍّ أو وثاق أو تقطيع بالسيف. ولم يكن هذا القسم موجها كالعادة للآلهة فى الكابيتول (الآلهة العلوية) وإنما إلى الآلهة السفلية من سادة الموت وأمراء دروب الظلمات (Dei inferni).

هذه الروح، روح اشتهاء الموت لدى الرومان والتى عبر عنها تيرانس (قرن ٢ ق م) ظلت لصيقة بالآداب اللاتينية، فقد استخدمها بعد ذلك بستة قرون القديس أغسطينوس عندما شبه الخاطئ اليائس من الرحمة الإلهية بهؤلاء المجالدين الذين كتبوا على أنفسهم الهلاك. وهكذا تحول جمهور السيرك الرومانى وقيصرهم جميعا إلى جلادين،



انتحار «كليوباترا»



احتفالات السيرك – لوحة من الفسيفساء – العصر الرومانى

وصار «استعذاب الموت» (amor mortis) وباءً رومانيا، ومع ترسخ هذه العلة من السادية والماسوكية فى نفوس الرومان، رفع الرومان من رذيلة إهدار كرامة الإنسانية والتلذذ بهذه المهانة حتى صارت واحدة من فضائلهم!

وجريا وراء هذه القسوة اللا آدمية صار مألوفا عن الرومان إعدام أسرى الحرب بالجملة، وقتل الفارين من ميدان القتال دون محاكمة، وتعذيب الشهود فى قضايا المحاكم. والتطور الآخر فى هذا المجال أن الكثيرين من أبناء الشيوخ الرومان وطبقة الفرسان قد تحايلوا على القوانين ودخلوا ساحة المجالدة ولكأنهم يشتهون العار والموت معا، وهذا دليل دامغ على تسرب روح القنوط واليأس إلى نفوس المجتمع الرومانى من عامة وخاصة.

ويرجع «لوكان» هذا التدهور الأخلاقى إلى أيام الصراع بين ماريوس وسوللا (قرن ١ ق م)، وما تبع ذلك من حمامات الدم بعد سيطرة ماريوس على روما. كما يمثل عام ٣١ ق م، سنة انتصار أوكتاڤيوس أغسطس على خصومه وخروجه سيدا أوحد على الإمبراطورية، بالنسبة للكثيرين حربا غير متكافئة بين معسكرين غير متكافئين، وبأنه بعد انتصار أغسطس وانتحار أنطونى وكليوباترا، صار التقليد فى المجتمع الجديد الركوع أرضا لتقبيل قدم «المواطن الأول»، وبات النفاق السبيل الأمثل للتسلق على سلم القيصر «المؤله». وقد عبر عن هذا التدهور والانحطاط خير تعبير الفيلسوف إبكتيتوس بقوله: «كم من المهانة بات على المرء أن يتحملها كى يصبح مرموقا فى روما... لقد بات علينا أن نقبل القدم، وأن نلثم أيدى العبيد من حشم وخدم حتى يُنعَم علينا بالوظائف العليا وألقاب الشرف فى الدولة». ثم يوجه الكاتب حديثه إلى واحد من أرستقراطية روما الذى كان قد شغل منصب القنصلية مرتين قائلا له: «إنك لا تعدو أن تكون عبدا كأى عبد آخر بيع مرات ثلاثا فى أسواق النخاسة، رغم أنك لم تعرض سلعة فى أسواق العبيد، ورغم أنك قد تحدرت من أب وأم من الأحرار.. ولكنك الآن لا تملك إلا أن تصبح واحدا من كثيرين تحت مظلة السيد القيصر... وهذا الشعور بالأمان الكاذب هو العبودية نفسها... إن سيدكم يمسك بالسوط تماما مثلما يفعل تاجر النخاسة».

ليس غريبا فى هذا الجو المخيف أن يقبل الجميع فى روما على ساحة المجالدة، فهى أصدق الساحات للتعبير عن حال المجتمع الرومانى وهو فى مهب الريح. وقد وصل الحد فى السيرك إلى أن الجلادين كانوا يستعينون بقضبان من الحديد الملتهب لمطاردة خصومهم فى ساحة القتال. ويمكن تفسير المجالدة أيضا على أنها ضرب من ضروب الإلهاء لانتزاع التصفيق من الغوغاء فى السيرك لشجاعة زائفة، بعد أن فشلت الفيالق الرومانية فى ميادين القتال ضد البارثيين فى الشرق وضد جماعة الجرمان على الراين والدانوب، فهى على حد تعبير ترتوليان «عزاء» (Solacium) للجميع.

ويشبه الفيلسوف سنيكا المواطنين الرومان عن بكرة أبيهم بحشد وافر من المجالدين الذين لا أمل لهم فى الحياة الكريمة، فليس ثمة وطن مأمون، ولا قضية يكافحون من أجلها، ولا عدو واضح المعالم أمامهم، وإنما بات المواطن يقتل مواطنا آخر دون سبب معقول إلا شهوة فى الموت.

ولقد فسر المعاصرون سفك الدماء الغزيرة فى السيرك فى الاحتفالات التى أقامها يوليوس قيصر سنة ٤٦ ق م على أنها خبيئة لتعطش قيصر للمزيد من الدماء. كما أن نهاية شيشيرون الخطيب الرومانى المرموق، فى ٧ ديسمبر سنة ٤٣ ق م، فى أعقاب مهاجمته لاستبداد قيصر، قد جاءت شبيهة بطقوس المجالدة، فعندما هاجمه زبانية قيصر وهو فى محفته فى شوارع روما، مدَّ لهم شيشيرون عنقه طواعية لتطيح بها السيوف وهو فى حال استسلام كامل. كما فسر البعض هذا الدم المهراق فى السيرك والشارع الرومانى على أنه طقس وثنى ترتوى من خلاله ربة الأقدار المنتقمة «نيميسيس» (Nemesis)، جزاءً وفاقًا لآثام الرومان.


المصارعة حتى الموت

كاليجيولا

يلاحظ أيضا أن روما قد ابتليت بعدد وافر من الأباطرة المتهوسين بداء جنون العظمة، وكلما ازداد جنون القيصر ازدادت معه رذيلة النفاق الاجتماعى المستمدة شعائره من ساحة المجالدة: ويروى لنا سيوتونيوس كيف أن اثنين من منافقى البلاط فى عهد الإمبراطور المختل كاليجيولا وهما سيكوندوس وإفرانيوس أقسما عندما اعتلت صحة الإمبراطور بأن يدخلا ساحة المجالدة إن منت الآلهة بالشفاء على صاحب الجلالة. وحدث أن شفى صاحب الجلالة من وعكته، فطلب من الاثنين المبادرة بتنفيذ وعديهما، وكان له ما أراد!

١٠

وبعد أن تغلغل اليأس فى نفوس الرومان، نمت فى ضمائرهم مشاعر شبه رومانسية مع الموت نفسه، وصار المجالد يرمز إلى عدة أمور، فهو عند الطبقات المغلوبة على أمرها يرمز إلى الأمل الضائع، وعند الخاصة من الأحرار والميسورين يمثل حالة من الانتحار الرواقى، بعد أن ملَّ أصحابه حياة الدعة والفجور. وعندما كتب بترونيوس قصة «أرملة إفيسوس»، وذلك فى عهد الإمبراطور المختل نيرون، فإنه كان يشير من طرف خفى إلى التدهور الذى أصاب المجتمع الرومانى آنذاك. وتدور القصة حول تلك الزوجة الشابة الجميلة التى مات رجلها، وعندما دفن فى قبره رفضت أن تبرح القبر. ولما أن باتت رائحة الجثة المدفونة تزكم الأنوف، ارتمت الخادمة على سيدتها الحزينة تتوسل إليها بالخروج من عالم الموتى وألا تدفن نفسها حية هكذا، ثم قدمت الخادمة لسيدتها كسرة من الخبز لتفتح شهيتها من جديد. وفجأة حدث تحول رهيب فى سيكولوچية المرأة، إذ بادرت بهجران القبر، وأقبلت على الحياة فى نهم زائد، وانغمست فى كل ما هو حسى ولذيذ وفاجر، حتى غدت امرأة كل عربيد فى المدينة. وانتهى بها المطاف بقيامها برحلة إلى قبر زوجها، فأخرجت عظامه من التراب وراحت تنثر عليها الأشواك وتوحلها بالتراب والسباب!

يتفق المعاصرون على أن الحرب الأهلية فى روما هى المسئولة عن الشرخ الذى أصاب الشخصية الرومانية فى صميمها، فبعد مقتل كراسوس لم يعد العالم كله كافيا لطموحات وشهوة بومبى وقيصر؛ ولذا فإن الحرب اشتعلت بين الاثنين، وهكذا كانت الحال مع أوكتاڤيانوس ومارك أنطونى.

ويعنى هذا كله أن أوصال الإمبراطورية قد مزقت بحد السيف، ولم يعد البر أو البحر ليكفى أطماع رجلين، حتى نصل إلى البطل الأوحد أو الأبد الأكبر.



تصوير جدارى فى غرفة الطقوس السرية - العصر الرومانى



لقد قهر القياصرة البر والبحر ومدارات الشمس والقمر، ولكنهم لم يشبعوا أو يقنعوا. وهم في هذا أيضا يشبهون البطل المأساوي تانتالوس الذي سقط غريقا في لجة من الماء العذب، ولكنه يموت عطشا. وهم أيضا كذلك البخيل الذي يرقد على كنز هائل، ولكنه لا يعرف كيف يتمتع به أو يفيد بجزء منه أحدا من الآخرين. وحصيلة هذه الشهوات الفجة هي الغثيان (Taedium Vitae) والشعور بالسأم؛ إذا لم يعد شيء في الحياة يثير الشعور بالسعادة أو حتى الاهتمام. ويشبّه سنيكا معاصريه من الروم بقوم مؤرّقين جافاهم النوم فاستحوذهم القلق. ولذا فإنهم يتحركون جيئة وذهابا دون هدف واضح حتى يبلوا كالحذاء القديم.



مصارعة الحيوانات المفترسة - تصوير جداري - العصر الروماني

إن هذا الشعور بالخواء هو الذي دفع الرومان وساقهم إلى دروب من الشذوذ والعبثية بحثا عن الإثارة؛ من قبيل ذلك ما يروى عن الإمبراطور فتيليوس الذي قيل إنه كان يعد لنفسه طبق غريب من الطعام أسماه الخلطة منيرفا؛ وهي مؤلفة من كبدة الخنذ، ومخ الطاووس، ولسان البلبل، وطحال الغنم. وقد جمع الإمبراطور هذا العجب من الخليط من أركان الإمبراطورية من

حدود فـارس حتى مضـايق إسبـانيا. وجاء الطبق الذى كـان يعده الإمـبراطور ألوجابالوس أشد غرابـة وعجبا؛ فهو خليط من حوافـر الخيل، وعُرف الديكة، وأعناق الببغاوات، ولسان العندليب.

ويرى الكاتب المعاصر سـيوتونيوس أن الإمبـراطور كاليجيولا كـان يهتاج عندما يكتـمل القمر بدرا، وبأنه كان يعـتلى سطح القصر لمغازلة القـمر، كذلك راح كاليجـيولا يشيد عمارة يـستحيل إقامتـها هندسيا لشذوذها وخـروجها عن العقل المنطـقى السليم. وأما نيرون فكان يحـفر ممرات فى الصـخور دون هدف واضح، وكان يعمـل على إقامة تحصينـات فى بطن البحر، كمـا أنه أقام واحدة من ڤيلاته وسط أكوام القمامة!.

وكان كـاليجيـولا يشكو بأن عهـده خالٍ من المصائب الكبـرى والأوبئة أو الهـزائم المروعة وكوارث الزلازل، ومذابح الحرس الإمبراطورى، ويود لو أن حكمه شهد هذه المصائب جميعا حتى يشعر بالإثارة والسعادة، وحتى يذكر التاريخ اسمه مقرونا بهذه الأحداث العظام!

أما عن الرواية المتواترة عن حرق نيرون لمدينة روما، فهى ليست افتراءً أو ادعاءً؛ إذ يذكر لنا سيـوتونيوس صراحة أن نيـرون قد دبر فعـلا إحراق المدينة لكى يشيـد على رمادها قصرا ذهبـيا، وأيضا كى تثير النيران المستعرة فى خياله المريض أشجانا كتلك التى كابدها بريام ملك طروادة وهى تحترق على يد اليونان. وقد ألمح الفيلسوف سنيكا فى روايته «ميديا» إلى هذا المعنى فى قوله: «كم هو جميل أن أجر العلم معى عندما تنتهى أيامى».

فى هذا المناخ المضطرب قلبا وقالبـا كان من الطبيعى أن يشعر القـياصرة أنهم وحدهم دون سواهم على المسرح، فأصبح وقع الموت هنا وهناك مجـرد تمثيلية على خشبة هذا المسرح، وتبلدت مشاعر القوم حتى باتوا يتلهون بالموت نفسه تماما كـما يتمضغون الطعام ويرشفون الشراب أو حتى يثرثرون. وهذا الشـعور السلبى تجاه الأشيـاء هو الذى زاد من هوس الناس بالمجالدة والاستـمتاع بمنظر الدم وهو يراق، وهو الذى جـعل الموسرين يبحـثون عن أندر الحيـوانات فى غابات أفريقـيا وآسيا بأسعار خيالية، تحملها السفن وهى مقيـدة فى أقفاصها لمجرد إطلاقها فى السيرك ذات أمسية لتفترس إنسانا سـيئ الحظ، وذلك وسط هتاف ورقص العامة والخاصة وسيدهم الـقيصر فى مدينة المدائن روما.

ويتفق الكُتّاب من معاصرين ومحدثين على أن قـصر الإمبراطور الرومانى نفسه قد انتهى به الأمر ليصـبح قفصا كـبيرا يخطو داخله الطاغيـة جيئة وذهابا وهو متـورمٌ بنوبات الغضب وجنون العظمة. وبعد أن «تأله» الأباطرة ولم يعد أحد يجرؤ على انتقاد أفـعالهم المخبولة، راحوا يبحثون عن سبل شاذة لإثارتـهم وتلهيتهم. ويروى عن كـاليجيولا أنه كثـيرا ما كان يقـبض على أعضاء مجلس الشيوخ ويأمر بجلدهم أمام عينيـه دون أى سبب يذكر إلا للتسلية، وبلغ به الحد أن أطاح

برقاب العديد من الناس على ضوء المشاعل ذات ليلة وهو يتبختر مع بعض حريمه فى ردهة قصر والدته. ويتوافق مع هذه التحولات شيوع ظاهرة الانتحار بالسم، ويرى البعض أن انتحار كليوباترا ومارك أنطونى كان واحدا من سلسلة الانتحار الجماعى هروبا من واقع الإمبراطورية المرير.

وينبغى القول عند هذا المنعطف المأساوى فى تاريخ الحضارة الرومانية أن الحكام والمحكومين من جلادين وضحايا، صاروا جميعا فى قفص واحد من السأم. ويُروى أن نبلاء روما فى وسط المآدب التى يقيمونها كانوا ينفجرون فجأة بالبكاء والنحيب، وأن البعض كانوا يقفون وسط ضيوفهم لرثاء أنفسهم بالمرثيات والبكائيات الشعرية. وكان الشذوذ واحدا من دروب الهروب من الواقع الأليم، بل إن بعض الرجال قد قاموا بقطع أعضائهم الجنسية (galli)، والبعض الآخر من الرجال قد دخلوا فى بيوت دعارة للذكور (ludi). كما حفلت مجالس القوم بعبث الكلام، وأفرط الجميع فى الشراب والسهر، وراحت النساء تفاخرن بعدم العفة، خاصة من بين الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى من أمثال فولڤيا، وچوليا، وأجربينا، ودوماتيلا، وغيرهن كثيرات.

وقد صاحب هذا التدهور الأخلاقى إعجاب الرومان بمناظر الرعب والفزع، حتى إنه فى مزادات أسواق النخاسة كان النبلاء لا يهتمون بشراء العبيد الأصحاء أو أصحاب الطلعة البهية، وإنما كان غرامهم بالمشوهين والممسوخين وذوى الخلقة الغريبة من أصحاب العيون الثلاثة أو ذوى الرءوس التى تشبه رأس النعامة والأيدى كأيدى السلاحف. ويحكى أن بعض الآباء قد عمدوا إلى تشويه خلقة الأبناء كى يباعوا بسعر خاص فى أسواق العبيد المخصصة للممسوخين (Teraton Agora).

المجتمع الرومانى

ومع هذا المزاج الأنكد راجت نخاسة الأقزام والعماليق بل والهياكل العظمية، وكان الأباطرة أشد الناس حرصا على اقتناء هذه المخلوقات الممسوخة، فقد أمر الإمبراطور كلوديوس أن ينادى المنادون فى شوارع روما ليقبل العامة على السيرك على وعد بأن يروا «ما لم تره عين من قبل...».

لقد غرقت الإمبراطورية الرومانية فى مستنقع اختلطت فيه الأشياء بأضدادها: ما بين تخمة ومجاعة، تواجد وغيبة، تبجح وجمال، تقوى وفجور، ثرثرة وصمت رهيب، إثارة وتبلد، حركة وسكون، فرح وحزن، إحباط وإشباع. وعن هذا التشوش يقول مارتيال فى وصفه لواحد حكم عليه بإحراق يده اليمنى بأنه كان المتفرج الوحيد على مشهد إحراق ساعده الأيمن، وكان عليه أن يصفق باليد اليسرى فى جنازة على يده اليمنى!

١٤

وفى محاولة لتشخيص الداء لا بد من الاعتراف بأن طغيان القيصر وحاشيته هو الذى جرَّ الخراب على المجتمع الرومانى، لقد كان الخوف من الحاكم الأبد سببا فى الشلل الاجتماعى. ويروى عن يوليوس قيصر ابن روما المدلل بأنه كان يأمر بعض النبلاء بالقيام بدور «المهرج» لإدخال السرور على نفسه المكتئبة. وانعدمت الثقة بين الناس، ولم يعد سادة الأمس يأمنون على أنفسهم، فهم لا ينامون فى عمق خوفا من غدر عبيدهم بهم وهم نيام. وازداد النفاق والتملق، حتى إن تاكيتوس يشبه حاشية القيصر «بلاعقى الأحذية بلسان مسموم»، فى حين أن سنيكا يصف المديح المتزايد «بالدعارة الكلامية» (Fasclinae lingua).



رجل وامرأة - نحت بارز - العصر الرومانى

ولم يكن توزيع قيصر القمح بالمجان والسماح للعامة بدخول السيرك مجانا أيضا إلا ضربا من ضروب النفاق وإلهاء الناس عن مشكلات الفقر والبطالة والهوة السحيقة التى باتت تفصل بين من يملكون ومن لا يملكون، ومن نفس القبيل كانت المآدب العامة التى كانت تقدم للفقراء والمساكين، والتى وصفها المعاصرون «بولائم المهابيل» (Festa Stultorun). وفى هذه المآدب كانت ألسنة المحرومين تلعق الطعام الدسم وتلعن فى



طفل عارى يقرأ نصوصا شعرية فى غرفة الطقوس السرية - تصوير رومانى

نفس الوقت جشع الأغنياء: فلقد سخروا من أغسطس نفسه وألمحوا إلى أنه «الخصى الذى يحكم العالم»، كما أشاروا إلى طيبريوس بأنه «كالماعز» الطائشة، أما عن الإمبراطور ماركوس أوريليوس، فقد عرف عن زوجته فاوستينا أنها كانت على علاقة آثمة بشاب يدعى ترتوللوس. وفى واحدة من المآدب العامة، وفى حضور الإمبراطور نفسه ظهر أحد المهرجين يمثل دور «المغفل» وراح يسأل من حوله: «مع من تخوننى زوجتى؟» فيرد القوم عليه «مع توللوس - مع توللوس - مع توللوس». ولكن الغبى لا يفهم، فيصيح القوم «لقد أخبرناك اسمه ثلاث مرات: توللوس، توللوس، توللوس.. أى ترتوللوس... هلا فهمت أيها الذكى؟».



الاحتفالات الرومانية الماجنة

لقد جن جنون الرومان واختلت الموازين تماما، فقد كانت عادة نيرون أن يغلق بوابات المسرح ويبقى هو على الخشبة ليقوم بالتمثيل منفردا، ويظل هكذا ساعات طوال، والويل لمن يجرؤ على مغادرة القاعة. أما كاليجيولا فكان يصر على بقاء الجمهور لمشاهدة تقطيع أوصال ضحاياه حتى يصاب الناس بالإغماء. كذلك عرف عن نيرون أيضا أنه فى إحدى حفلاته الماجنة أمر أحد العبيد بأن يضاجع زوجة سيده على مشهد من الأضياف والسيد نفسه، كما أنه أمر أحد المجالدين باغتصاب إحدى الفتيات على مشهد من الضيوف ومن والديها!.

من هذا العرض يتضح دون لبس أن المجتمع الرومانى كان فى حالة انتحار جماعى، وفى حالة اضمحلال وسقوط من داخله، وهذه حقيقة تؤيدها كل شواهد العصر.

الأحوال الاقتصادية

ولم تكن الإمبراطورية الرومانية تستند فى نظمها الاقتصادية إلى مبادئ سليمة؛ فالفتوحات الكبرى فى الغرب والشرق لم يكن يحركها هدف واضح كفتح أسواق خارجية لإنعاش التجارة مثلا، أو بغرض توطين العاطلين من رعاع المدينة ودهماء الريف على سبيل المثال، فالذى حدث أن سلمت هذه الولايات المفتوحة للقناصل السابقين والجنرالات المتقاعدين الذين انحصر همهم الأكبر فى اكتناز الثروات حتى عن طريق الربا، وذلك على حساب أهالى الولايات وبطبيعة الحال على حساب دخل الخزانة الإمبراطورية.

ويلاحظ أن هذه الإمبراطورية الكبرى لم تكن تعتمد فى الحصول على رغيف الخبز لعاصمتها من الريف الإيطالى المجاور، وإنما كانت لقمة العيش تشحن للعاصمة من شمال أفريقيا أو من مخازن الغلال فى الإسكندرية. كما وأن العملة فى القرن الثالث أخذت فى الاختفاء من الأسواق، ليحل محلها نظام المقايضة البدائى، وصارت رواتب الجند تدفع لهم حصة من القمح بدلا من العملة، إلى جانب هذا أغفلت روما قوتها البحرية ولم تؤمّن مجالات نشاطها البحرى فى البحر الأحمر والبحر الأسود وسواحل بلاد الغال الشمالية، ثم إن البحر الأبيض نفسه سرعان ما بات نهبا للقراصنة اليونان.

الإمبراطور دقلديانوس

وإذا نظرنا إلى الريف الرومانى، حيث الزراعة وتربية الماشية والتعدين، نجد أن العبء كله كان يقع على كاهل العبيد، وكان أقل صغار الملاك يملك عبدا أو عبدين، فى حين أن كبار الملاك كانوا يملكون آلافا من العبيد. وعندما تحل ضائقة بأحد صغار الملاك فإنه كان يلجأ إلى الاستدانة من كبار الملاك والمرابين الذين كانوا يتقاضون ربا على الديون تجاوز نسبة ١٢٪ أو يزيد. وفى القرن الثالث بوجه خاص صار الأهالى يضجون من وطأة الضرائب الثقيلة التى فرضتها الدولة لتغطية نفقات الفيالق المنتشرة فى ولايات الإمبراطورية، ولسداد أعباء الأجهزة البيروقراطية المتعددة، وقد ازداد الأمر سوءا فى عهد الإمبراطور دقلديانوس الذى ابتدع نظام الحكم الرباعى (Tetrarchy)، وقسم الإمبراطورية إلى اثنتى عشرة ولاية تضم ستا وتسعين مقاطعة، ولكل من هذه الأقسام وتوابعها حكامها وأجهزتها وجيوشها. وقد وقعت أعباء تمويل كل هذه الأجهزة على كاهل دافعى



الضـرائب من أبناء الطبقـة الوسطى وصـغار الملاك. وحـتى هذا النظام الإدارى الصارم سرعان مـا تصدع بسبب تناطح القياصـرة والأباطرة فى النصفين الغربى والشرقى للإمبراطورية، كلٌّ يتآمر للانفراد بالسلطة ولو على جثث الآخرين من رفاقه. ومع هذه الفوضى والحرب الأهليـة زاد عدد الساسة العاطلين الذين باتوا يلقون بتـأييدهم تارة مع هذا الفيلق وأخـرى مع تلك الفرقة، وذلك فى مـقابل رشوة دسمة. وهكذا اشتعلت الحرب الأهليـة، حتى إن أباطرة تلك الفترة عرفوا باسم «أباطرة المعسكرات». أمـا موظفو الإدارة فى الولايات فقـد فرضوا «إتاوة» على الموسرين من أهل البلاد فازدادت الأحوال سوءا على سوء.

يضاف إلى هذا أن العائلات السيناتورية كانت معفاة من الضرائب ليس فقط عن ضياعها فى إيطاليا وإنما أيضـا عن الضياع التى كانت تملكهـا هذه العائلات خارج حدود إيطاليـا. وفى القرن الرابع صـارت عضويـة السيناتو مـجرد لقب شـرفى يمنُّ به الأغسطس على من يـشاء من أتبـاعه وخلصائه، وقد كان سخيا فى هذا الصعيد. وكان شرف السيناتورية يعفى صاحبه من دفع الضريبة عن ضـياعـه، وهكذا وقع عبء دخل الخزانة الإمـبراطوريـة كله على الطبقـة الوسطى. كمـا أن الحكومة الرومانية فرضت على صغار الملاك ضريبـة أخرى لمواجهة عبء الإدارة المتزايد تعقيدا، ثم ألزمت كل مدينة بالتضامن فى دفع مجمل الضريبة المقـررة عليها كاملة، وألقت بهذه المسئولية فى توفية الدفع على هيئة من مواطنى المدينة المنتخبين (Curiales).

وقد أدى هذا النظام الضريـبى إلى قصم ظهور الطبقة الوسطى، مما أدى بالـكثيرين من أبناء هذه الطبقة إلى العـزوف عن الزواج حتى لا يرث أبناؤهم تعاسة الآباء، ولقـد اهتبل السيناتوريون فرصة الخراب الذى حل بالطبقة الوسطى، وابتلعـوا الملكيات الصغيرة فى القرنين الرابع والخامس، وبهذا تدنت أعـداد وفيرة مـن أهل الريف إلى فلاحين معـدمين تماما. والأدهى من ذلك بالنسـبة لخزانة الإمـبراطورية أن تحـايل الكثيرون على جـامعى الضـرائب بأن تنازلوا عن أراضيـهم للسادة أعضاء مجلس السيناتـو كى لا تجبى عليها الضريبة، وفى مقابل ذلك كان السـيناتور يحصل مبلغا محددا من المال من صاحـب الأرض ليتستر عليه وهو يقوم بزراعـتها والاستفادة بمحـصولها، وقد عرف هذا «التـحايل» باسم (Patrocinium). ومع أن الدولة كانت تكافح هذا التـحايل، إلا أن أفراد الطبقة الأرسـتقراطية الزراعية كانوا يعرفـون كيف يحشون جيوب القضـاة وجامعى الضرائب برشوة دسمـة. وهكذا استشرى الفسـاد بين رجال العدالة أيضا، حتى إن أحـد المتندرين قد جاهر بضرورة إصدار قـانون يحرم على القضاة قبـول دعوات حفلات العشـاء على مآدب السيناتوريين. والمحصلة أن قرى بكاملها قد خضعت تحت سطوة الأرستـقراطية الرومانية الجشعة، وضاعت على خزانة الحكومة كل الضرائب التى كـانت تجبى عليها سابقا. وألهبت الحكومـة ظهور من تبقوا من

صغار الملاك بضرائب جديدة لتعويض ما التهمته بطون الشيوخ.

١٨

قسطنطين الكبير

وما أن وصل الإمبراطور قسطنطين الكبير إلى الحكم منفردا بعد قتل جميع خصومه من قياصرة وأباطرة (٣٢٤ ـ ٣٣٧م)، حتى أظهر انحيازا نحو المسيحية ثم أصدر مرسوما بإعفاء أراضى وأوقاف الكنائس من دفع الضريبة، فراحت الكنيسة تبسط جناحيها هى الأخرى على أراضى شاسعة لتعفيها من دفع الضريبة للدولة. ولم يتعفف التاج نفسه من هذا الإثم، إذ كان الإمبراطور ـ وهو لا يدفع ضريبة عن وساياه ـ كثيرا ما يضع أراض شاسعة تحت لوائه كى تعفى من دفع الضريبة.

عمود دقلديانوس - أقامه اليهود تخليدا له لاضطهاده للمسيحيين - الإسكندرية - مصر

وعندما قلّ دخل الخزانة أثقلت الحكومة على دافعى الضرائب، ولكن الناس كانوا قد أرهقوا بما فيه الكفاية، فلم يتورعوا عن أن يمطروا جامعى الضرائب إذا ما حلوا بالقرى بوابل من السباب والحجارة. ولكن الحكومة ردت بفرض القوانين والإجراءات المجحفة لتمتص دماء الطبقة الوسطى وصغار الملاك، ولم تدر السلطات أن البقرة الحلوب قد جفّ ضرعها. ومضت الحكومة الرومانية فى سياساتها المتعسفة فحرمت على صغار الملاك بيع أراضيهم والتنازل عنها، كما منعتهم من ممارسة حرفة أخرى غير الزراعة، ثم أغلقت فى وجوههم باب الدخول فى الجندية، ولا



الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤ - ٣٣٧)



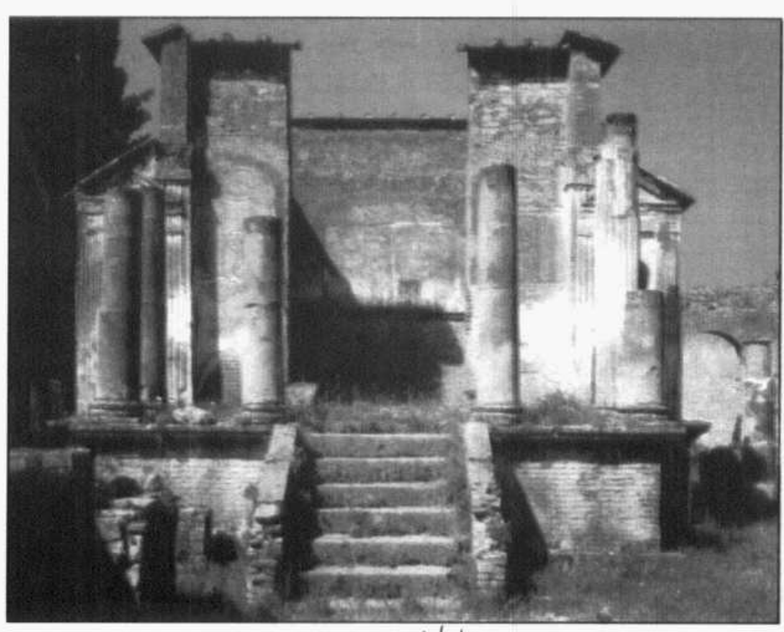
ندهش إذا علمنا أن الكثيرين من أبناء الريف قد هربوا سرا من ذويهم وبيوتهم وعملوا عبيدا عند الموسرين والنبلاء. والأدهى من ذلك كله أن الحكومة أصدرت قانونا جعل الأعباء الضريبية على أبناء هذه الطبقة وراثية يتحملها الابن عن الأب (Decurio).

إن هذه المأساة التى حولت أبناء الطبقة الوسطى وصغار الملاك - التى هى عماد الدولة - إلى وضع أشبه ما يكون بالعبودية كان واحدا من أهم العوامل التى عجلت بهدم بنيان الإمبراطورية الرومانية.

ولم تكن الأمور أحسن حالا مع التجار وأرباب الحرف، ففى نهاية القرن الثالث صدر قانون يثبت هذه الشريحة من المجتمع الرومانى فى حرفتها حتى تصبح كادرا وراثيا ووضعا اجتماعيا ثابتا (Status) يرثه الأبناء عن الآباء رغبوا فى ذلك أم كرهوا.



عبد يعمل بالفلاحة - العصر الرومانى



معبد إيزيس - بومبى

العبيد

فى عصر الازدهار الإمبراطورى كانت ظاهرة وفرة أعداد العبيد دليلا على التميز وبحبوحة العيش وضمانا لسير العمل فى مختلف القطاعات، ولكن الملاحظ أن عدد العبيد أخذ يتناقص بشكل ملحوظ فى القرنين الثالث والرابع؛ مما يشير إلى أن عدد الموسرين قد تناقص بالفعل، بحيث لم يعد أصحاب الأراضى قادرين على شراء العبيد ولا حتى إطعام أفواه القلة من الذين بقوا فى حوزتهم. وبمرور الوقت اختفت جماعات العبيد الذين كانوا يعملون فى الضياع السيناتورية فى كل من إيطاليا وغالة وإسبانيا. ولقد نتج عن هذه الظاهرة تطور هام ظل صفة مميزة للحياة الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية فى غرب أوروبا على مدار العصور الوسطى، فلقد لجأ أصحاب الأراضى الزراعية إلى إبرام اتفاقات مع فقراء الفلاحين فى قراهم ومع العبيد أيضا على أن يقوم هؤلاء بفلاحة الأرض مقابل حصة هزيلة لا تكاد تسد الرمق من غلة الأرض، مع السماح للبعض الآخر بشريط هزيل من الأرض يفلحونه لحسابهم مقابل خدمات أخرى، وقد عرف هؤلاء الفلاحون باسم «Coloni» أى معمرى الأرض، وهم النواة الأولى للأقنان (Serfs) الذين ربطوا بالأرض لا يبرحونها فى ظل الهرم الإقطاعى، كذلك استقدم نفرٌ من أصحاب الأراضى فى القرن الخامس بعض المتبربرين الجرمان لفلاحة الأرض بنفس الشروط السابقة، وعرفوا باسم «Inquilini».

وإذا نظرنا إلى الشعب الرومانى فى كليته من خاصة وعامة فى أواخر القرن الثالث لوجدنا شعبا متقلب المزاج، وعلى درجة بالغة من الجبن والانحلال الخلقى سواء على مستوى طبقات النبالة أو العامة (Plebs). ومن الناحية الثقافية ظلت الصفوة الرومانية تلوك تراث الإغريق القدامى أو تحاول تقليده، وسرعان ما غزت الفلسفات الانهزامية من رواقية مترنحة وأبيقورية فاضحة قلوب السادة الرومان. وما من شك فى أن الإغريق قد نجحوا بذكائهم فى إبهار سادتهم الرومان «الأغبياء»، كما عمل البرغاميون والمقدونيون والسلوقيون والبطالمة على إنهاك حيوية روما وامتصاص دماء الرجولة اللاتينية.

الأحوال الدينية

ثم إن روما أصبحت تستقبل يوما بعد يوم عددا لا يحصى من الربات والأرباب يزاحمون أرباب الكابيتول وسيدهم چوبيتر فى روما؛ وهكذا عرف الرومان إيزيس المصرية، والأم العظمى الفريجية، ومثرا الفارسى وغيرهم. ومع هذا السيل الذى لا ينقطع من الوافدين على روما تسللت ديانة جديدة عرف أصحابها وقتئذ بأتباع المسيح. وكان هؤلاء فى أول الأمر قلة من بؤساء المجتمع من بسطاء الناس والعبيد والنساء. والذى حفز هذه الفئات المقهورة إلى اعتناق هذه الرسالة الجديدة



الوافدة من الشرق أنها كانت تحتضن فى رحابها الفقير كما تحتضن الغنى، والعبد مثل الحر، والمرأة مثل الرجل.

ولقد وجد العبيد الذين بلغ عددهم عدد المواطنين الأحرار تقريبا، أن هذه العقيدة الجديدة لا تقيم وزنا للرق والنخاسة فى ملكوت السموات، ولم تتردد فى المجاهرة بأن عبدا (رقيقا) صالحا يحق له أن يصبح أبا روحيا للجميع من الأمير إلى الفقير. أما النساء فقد وجدن فى سيرة العذراء مريم تكريما للمرأة، فى حين أن المجتمع الرومانى كان يضع المرأة دوما فى مرتبة دونية بالنسبة للرجل.

كان طبيعيا أن يمتعض السادة الرومان من هذه العقيدة الغريبة التى تطاولت على آلهة الكابيتول ونهت عن تقديم الأضحيات لهم، ثم ما لبثت أن استخفَّت بملوك هذا العالم، ومن بينهم «المواطن الأول» والمؤله ابن روما البار. ومن ثم فإن الحكومة الرومانية شعرت بناقوس الخطر يدق على الأبواب، فسارعت بمطالبة رعاياها بأن يبرهنوا على الولاء والطاعة للإمبراطور بأن يقوم كل مواطن بإحراق حفنة من البخور عند قدمى تمثال الإمبراطور الحاكم دلالة على الولاء والخضوع.

ولكن المسيحيين رفضوا أداء هذه المراسيم الوثنية خاصة فى الولايات، فجن جنون حكام الولايات، وظنوا أن هؤلاء القوم باتوا يتآمرون بالسوء ضد روما وسيد الرومان. وبالنسبة للبلاط الإمبراطورى فإن هذا الموقف الرافض كان يرقى إلى درجة الخيانة العظمى.

موجات الاضطهاد ضد المسيحيين

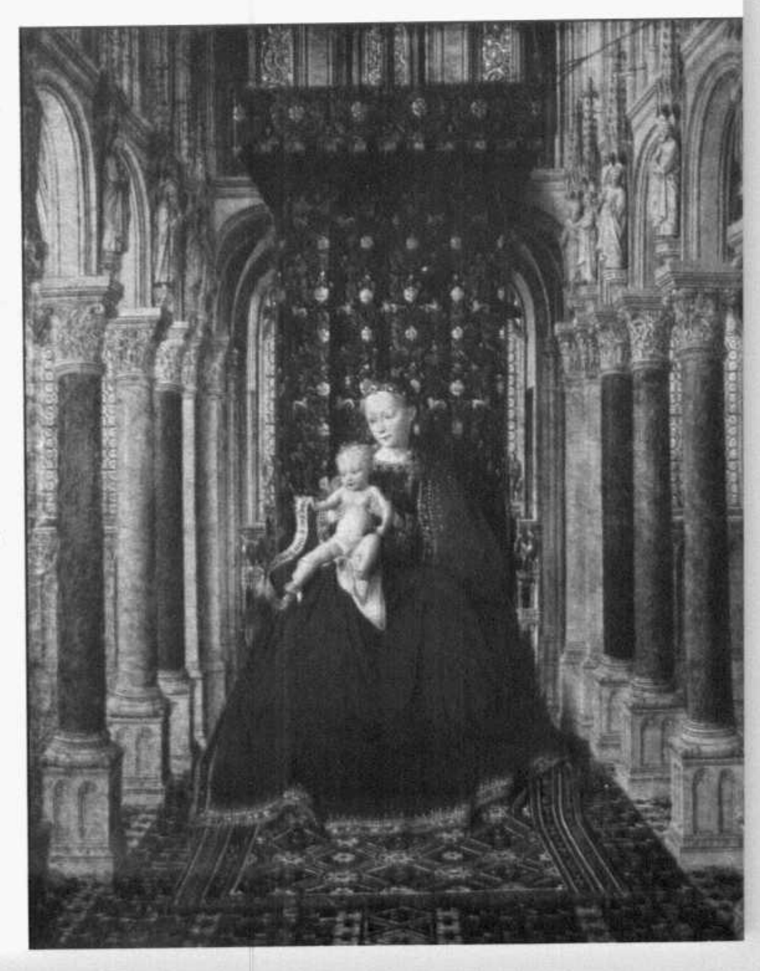
وهكذا بدأت موجات الاضطهاد ووصلت ذروتها فى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م)، والتى اكتوت بنيرانها ولايات المشرق على وجه خاص. ورد الكهنة المسيحيون على ذلك بأن دعوا أتباعهم فى الدين الجديد إلى الامتناع عن خدمة الدولة وعن الدخول فى الجندية فى موجة من العصيان والتمرد.

وازدادت مشاعر الشك والريبة فى قلوب الرومان وخاصة أن أبناء هذه العقيدة الجديدة كانوا يلجأون إلى الكهوف وجحور الأرض يمارسون فيها شعائرهم الغريبة ويترنمون بألحان وأدعيات غير مفهومة. وراحت غوغاء المدن تروِّج عن هذه الجماعة روايات مختلفة ومختلقة عن ممارسات سرية تثير التساؤل. وعليه فإن الحكومة الرومانية ضربت هذه الجماعات بالحديد والنار، بل إن أعدادا كبيرة منهم قدمت فريسة للأسود المجوعة فى الحلبة الرومانية وسط صياح وهتافات الجماهير

المخـمورة. ووجـد فى رومـا من يقـول بأن أرباب الكابيتول أضحوا أشد عطشا لدماء هؤلاء «المارقين»، وكـان لابد من ارتواء هذه الآلهة وإطفاء ظمئهـا وغضبها بدماء الذين كانوا لهم من المنكرين!

ولم تهدأ الحـال إلا بعد أن أصدر الإمبراطور قسطنطين الكبير مرسوم ميلان سنة ٣١٣م بوقف اضطهـاد أتبـاع الدين الجـديد والسمـاح لأتبـاع هذا الدين بممـارسة شعـائرهم جنبـا إلى جنب مع الوثنيين دون أن يتحرش طرف بالآخر!

تمثال لإيزيس بملابس رومانية (ربة الحظ) تمثال من الرخام



العذراء - لوحة للفنان چان فان آيك

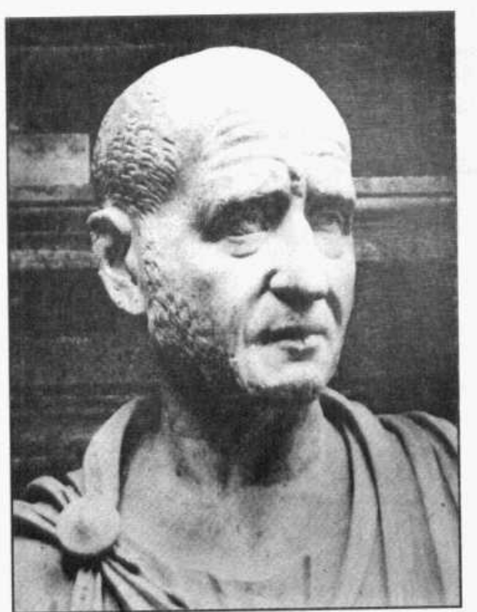


الفصل الثانى
الغزوات المتبربرة

ظلت الشعوب الجرمانية فيما وراء نهرى الدانوب والراين فى سلام مع الإمبراطورية خوفا من فيالقها التى لا تهزم، ولكن هذا لم يمنع من حدوث صدامات بين الحين والآخر بين الطرفين. وجاء أول صدام فى نهاية القرن الثانى قبل الميلاد وذلك عندما تحركت قبائل الكمبرى والتيوتون من شواطئ بحر الشمال قبالة حوض البحر الأبيض المتوسط مهددةً فى هجراتها ولايات الإمبراطورية خاصة فى غالة. وقد وقع صدام بين فيالق الجيش الرومانى بقيادة ماريوس وبين جماعة الكمبرى سنة ١٠٢ ق م عند بلدة إكس ـ إن ـ پروفانس؛ ثم عند بلدة ڤرسيل سنة ١٠١ ق م، ولم تكن النتيجة حاسمة لأى من المعسكرين. وفى سنة ٥٨ ق م استنجد زعماء غالة بيوليوس قيصر لحمايتهم من هجوم زعيم جرمانى اسمه أريوڤست فى منطقة الألزاس. وقد لبى قيصر النداء وتصدى للزعيم الجرمانى المهاجم وأجبره على التقهقر إلى ما وراء الراين. وتابع قيصر حملاته على منطقة الراين سنة ٥٥ ق م، وتبعه بعد ذلك أغريبا سنة ٣٨ ق م، ثم دروسوس زوج ابنة الإمبراطور أغسطس الذى نجح فى إخضاع المناطق الواقعة بين نهر الراين ونهر إلب، وإن كان قد قتل أثناء المعارك. بعد مقتل دروسوس خلفه فى القيادة شقيقه طيبيريوس الذى عبر نهر الدانوب وانقض على منطقة بوهيميا، غير أنه فى العام التاسع ق م زحف الجرمان مرة أخرى تحت قيادة زعيمهم أرمنيوس، فتصدى لهم القائد الرومانى ڤاروس، ولكن الجرمان أوقعوا بالرومان هزيمة ساحقة فى موقعة تيتوبرجرفلد، واضطر الرومان إلى إخلاء الشط الأيمن لنهر

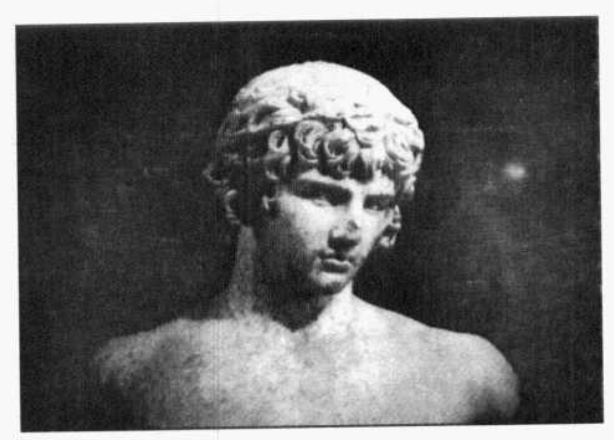


تعذيب المسيحيين - تصوير رومانى - فسيفساء


الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م)

الراين، ولما أن اعتلى طيبيريوس العرش الإمبراطورى قرر اتباع سياسة دفاعية فى تلك المناطق بدلا من السياسة الهجومية السابقة.

وتعكس كتابات المعاصرين الشعور العام فى الإمبراطورية الرومانية تجاه الخطر الجرمانى الذى بات يهدد كيان «السلام الرومانى» (Pax Romana): فلقد عبر كل من أوڤيد، وپلينى الأكبر، والفيلسوف سنيكا، والمؤرخ تاكيتوس عن مخاوفهم من زحف القبائل الجرمانية، مع الإشادة من طرف خفى بشجاعة الجرمان وأخلاقهم التى كانت - فى رأيهم - كافية للقضاء على المجتمع الرومانى الذى استشرى فيه الفساد.


الإمبراطور أنطونينوس (١٣٨ - ١٦١م)

على أن الحدود مع الجرمان قد شهدت هدوءا نسبيا فى القرن الثانى للميلاد، وخاصة بعد أن نجح الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م) فى إخضاع منطقة داكيا، وبعد أن أرسى الإمبراطور أنطونينوس بيوس دعائم السلم على حدود الدانوب (١٣٨ - ١٦١م)، حتى إن الخطيب إليوس أرستيدس امتدح حصافة الإمبراطور، مفاخرا بعودة السلام الرومانى، ومهددا بالعصا الرومانية الغليظة لكل من تسول له نفسه التطاول على مدينة المدائن روما «فهى الأم العظمى والموئل لسائر شعوب الأرض، والتى بوسع الإغريقى والمتبربر جميعا التعايش تحت مظلتها سواء بسواء».



القوط

ورغم هذا فإن الحقيقة الثابتة هى أن شوكة «چرمانيا» كانت آخذة فى القوة، فلقد تحركت جماعة من القوط من على ضفاف نهر ڤستولا قبالة شواطئ البحر الأسود، وتبعتها جماعات مختلطة الهوية من «القواضى» (Quadi) والماكرومان الذين عبروا نهر الدانوب وحاصروا المدن، حتى إن أهالى روما نفسها قد شعروا بالفزع رغم جهود الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ ـ ١٨٨م) فى تعزيز نقاط الحدود على نهر الدانوب.

ولم تنقطع تحرشات الچرمان على حدود الدانوب والراين، ففى عهد الإمبراطورين ڤاليريان (٢٥٣ ـ ٢٦٠م) وجاليان (٢٦٠ ـ ٢٦٨م) تمكنت جماعة من الفرنجة من تحطيم حواجز الراين والعبور إلى غالة ومنها إلى إسبانيا، حيث استولت على بعض السفن الراسية فى البحر المتوسط وأبحرت بها إلى شواطئ موريتانيا. كذلك هجمت جماعة أخرى من الچرمان على إيطاليا عبر ممرات جبال الألب ونهبت مدن الشمال الإيطالى وصولا إلى مدينة راڤنا، إلى أن تصدى لهم الإمبراطور جاليان عند مدينة ميلانو.

وفى سنة ٢٦٩م اجتاح القوط مناطق الدانوب واشتبكوا مع الإمبراطور كلوديوس (٢٦٨ ـ ٢٧٠م) عند بلدة نيش فى البلقان. وفى نفس الوقت زحفت جحافل أخرى من الفرنجة والألمان على غالة وضربت قرابة ستين مدينة من بينها باريس وبواتييه وبوردو. ورغم جهود الإمبراطور بروبوس (٢٧٦ ـ ٢٨٢م) إلا أن غالة صارت نهبا للچرمان فعمت فيها الفوضى والمجاعات.

ولقد هدأت لحين جبهة الراين فى عهود الأباطرة دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)، وماكسيميان (٢٨٦ ـ ٣٠٥م)، وقسطنطين الكبير (٣٢٤ ـ ٣٣٧م)، ولكن الچرمان ظلوا يتسللون إلى قلب شبه الجزيرة فى البلقان، واضطر الإمبراطور قسطنطين الثانى (٣٣٧ ـ ٣٤٠م) إلى قبول هؤلاء القوط «كمعاهدين» (Foederati) فى خدمة الإمبراطورية، ثم أرسلت السلطات الرومانية بالمبشرين الذين نشروا المسيحية بين هؤلاء القوط على المذهب الأريوسى الذى كان الإمبراطور منحازا إليه.

الهون

وعندما زحفت حشود من مغول آسيا يعرفون باسم «الهون» (Huns) على شرق أوروبا أرهبوا القوط بسياطهم وخناجرهم، فاستصرخ القوط السلطات الرومانية كى تسمح لهم بعبور الدانوب هروبا من الهون. ولقد سمح إمبراطور النصف الشرقى للإمبراطورية ڤالنس (٣٦٤ ـ ٣٧٨م) للقوط بالعبور سنة ٣٧٦م، الأمر الذى أثار هياجا شديدا بين المعاصرين، عبر عنه الكاتب المعاصر إميانوس مارسللينوس، الذى شبه عبور القبائل الچرمانية لنهر الدانوب بعبور الميديين ـ فى

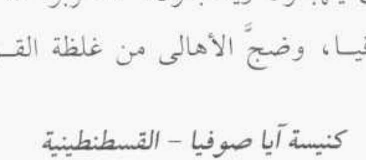


الإمبراطور ماركوس أوريليوس
(١٦١ - ١٨٨م)

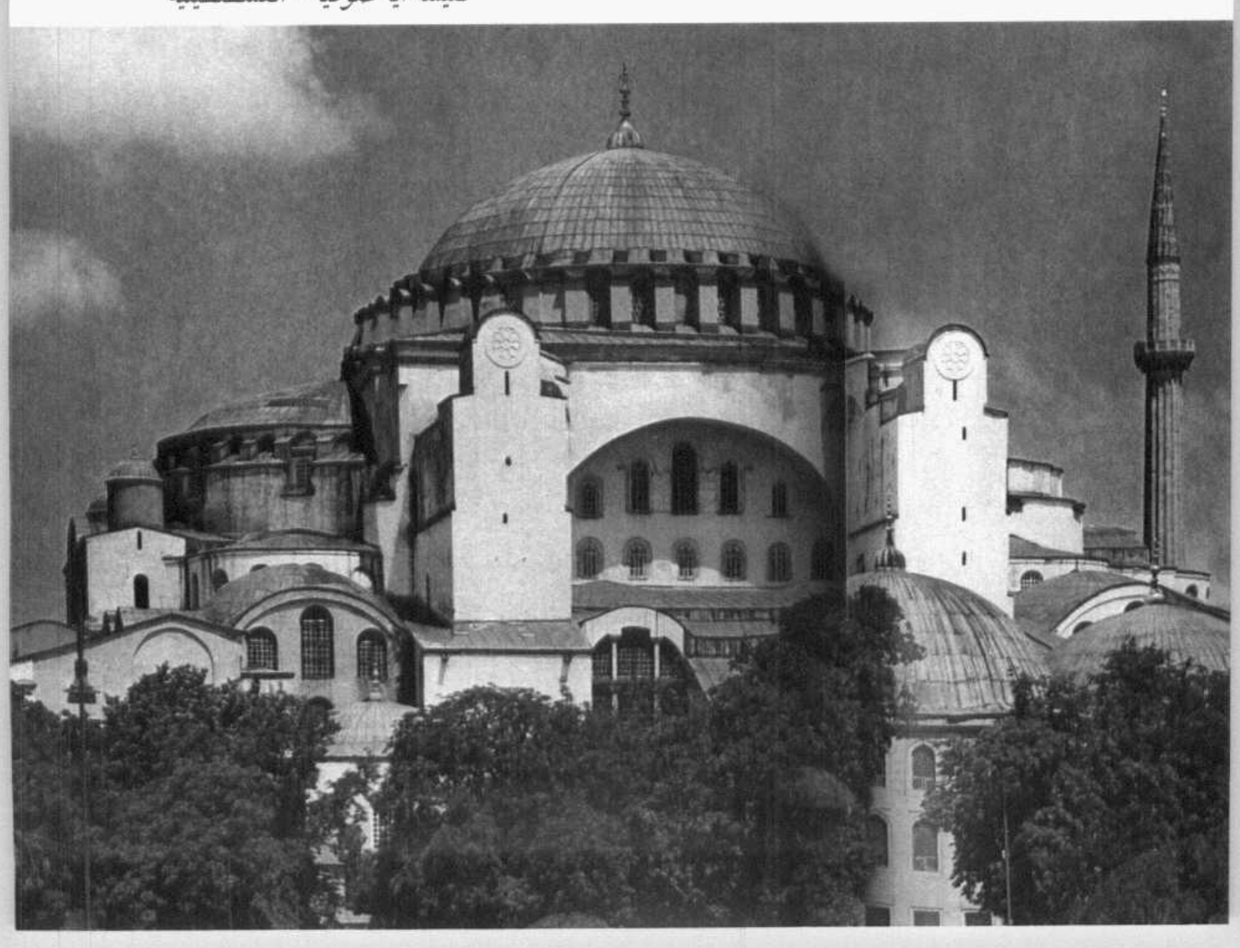
القديم ـ لمضيق الدردنيل. ويقدر عدد القوط الذين عبروا نهر الدانوب إلى قلب البلقان بحوالى مائتى ألف، دون حساب عدد ذويهم وعبيدهم.

موقعة أدريانوپل

كان من ضرب المستحيل تزويد هذه الأعداد الغفيرة بما يسد رمقها؛ ولذا فإن القوط انقضوا على أهالى القرى ينهبون ويسلبون، فخربوا مناطق مؤيزيا وتراقيا، وضجّ الأهالى من غلظة القوط



كنيسة آيا صوفيا - القسطنطينية







تشكيل عسكرى لجيش رومانى
نحت بارز - العصر الرومانى

وجبروتهم. أمام هذا الموقف المتدهور أفاق الإمبراطور ڤالنس من غيبته وسارع بإعداد حملة قادها بنفسه لتقليم ظافر القوط. والتقى لطرفان عند مدينة 'دريانوپل فى ٩ أغسطس ٣٧٨م، وانتهت المعركة بكارثة مهولة، فلقد حلت الهزيمة كاملة بالجيش الرومانى، وقتل الإمبراطور ڤالنس فى أرض المعركة. وبعدها دانت البلقان للقوط فنهبوا البلاد، وزحفت جماعة منهم حتى شارفت أسوار القسطنطينية نفسها.



تمثال سيرابيس من الخشب - المتحف الرومانى - الإسكندرية

الإمبراطور ثيودوسيوس

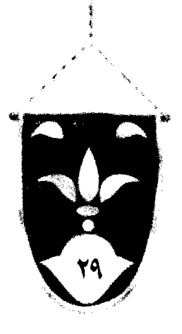
٢٨

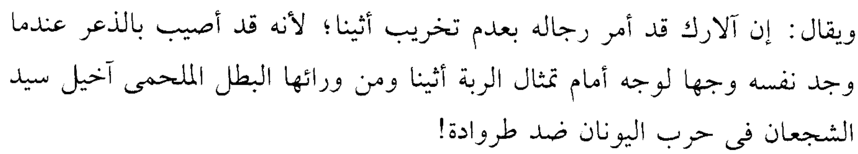
أثار مقتل إمبراطور النصف الشـرقى للإمبراطورية على أيدى القوط ردود فعل عنيفـة فى النصف الغربى للإمبراطورية، وعلت الأصوات مطالبـة جراتيان إمبراطور الغرب بضرورة التحرك للانتقام من القـوط. واستجاب جراتيان باختيار جندى مرموق ليـحكم النصف الشرقى للإمبراطورية وهو ثيـودوسيوس الذى لمع نجمـه بعد أن حـقق انتـصارات على قـبائل السـرماتيين. واتفق على أن يتـولى جراتيان تأمين حدود الراين، وأن يقوم ثيودوسيوس بتجميع فلول الكتائب المنهارة فى الشرق لطرد القوط من سـالونيكا ومؤينريا العليا. ونجحت هذه الخـطة فى إيقاف زحف القوط ولو إلى حين. وقد لجـأ إمبراطور القـسطنطينية الجديد ثيـودوسيوس (٣٧٨ - ٣٩٥م) إلى سيـاسة الدبلوماسية فرحب فى بلاد بيزنطة بملك القوط أثانارك بعـد أن خلعه شعبه، بل ومنحه أيضا حق اللجوء السياسى أملا فى أن يفيد به فى معالجـة المشكلة القوطية التى باتت تهدد كيان الإمبراطورية فى الشرق والغرب على حـد سواء. وفى نهاية الأمر نجح ثيودوسيـوس فى إبرام اتفاق مع القوط على أن يسمح لهم بالاسـتقرار فى منطقة تراقـيا مقابل تزويد الجـيش الإمبراطورى ببضـع كتائب قوطية.

آلارك القوطى

ولقد استخدم الإمبـراطور ثيودوسيوس كتيبة من القوط فى صراعـه ضد خصمه يوجنيوس المطالب بالعرش، وبهذا قويت شـوكة القوط فى العاصمة نفسهـا، مما اضطر الإمبراطور إلى إبعاد هذه الكتيبة إلى أراضى الدانوب، ولكن هذا الإقصاء إلى الدانوب أغضب جماعة القوط، فأخذوا يتجـمعـون حول زعيم جـديد يدعى آلارك، وراحوا يغـيرون على أراضى تراقـيا وتساليـا وآتيكا والمورة. وأصيـبت بلاد اليونان بخراب أتى على الأخـضر واليابس. ولقـد فسر الكتـاب الوثنيون المعاصرون هذا الـدمار الذى أوقعه القوط ببـلاد اليونان على أنه مؤامرة دنيـئة حاكهـا الإمبراطور الشـرقى ثيودوسـيـوس مع القوط للقـضـاء على بقايا الحـضـارة الهلينيـة الوثنية. والمعـروف أن ثيودوسـيوس كان شـديد الوطأة على الوثنية ومـعابدها وكهنتـها فى مـختلف الولايات الخاضـعة للنصف الشرقى للإمبراطورية، فلقد أصدر سنة ٣٩٢م مرسومـا إمبراطوريا بتحطيم معبد سيرابيس فى مدينة الإسكندرية، كما أمـر بإيقاف تقديم الأضحيات فى المعابد، ونعت الوثنيـة صراحة بأنها «شعوذة سوقية» (Gentilicia Superstiti).

سقطت مدن اليونان الواحدة تلو الأخـرى فى أيدى آلارك، وباتت مدائن كورنثة وآرجوس وميغارة وإسبـرطة وپيريه خرابا يبابا. ولم تملك أثينا إلا أن تفتح بواباتها للغـازى القوطى الجبار،





ويقال: إن آلارك قد أمر رجاله بعدم تخريب أثينا؛ لأنه قد أصيب بالذعر عندما وجد نفسه وجها لوجه أمام تمثال الربة أثينا ومن ورائها البطل الملحمى آخيل سيد الشجعان فى حرب اليونان ضد طروادة!

لقد فـزع المعاصرون أمـام ذلك الخراب الشامل الـذى حلَّ بأرض اليونان على أيدى المتبـربرين، فكتب جيروم سنة ٣٩٦م رسالة تفـيض حزنا وأسى ينعى فيـها بلاد اليـونان بقوله: «كيف لـى أن أعدد المآسى التى حلت بزمـاننا والحزن يعصر قلبى... فعلى مدى عشرين عاما مـتتالية والدماء تسفك بين القسطنطينية وجبـال الألب اليوليانيـة... لهفى على العذارى والأمـهات المرضعـات، وعلى المواطنين الأحرار الذني سيقوا عبيـدا فى أيدى البرابرة الشقر.. لقد قيد الأساقفة والقـسيسون بأغلال الذلة والمهانة، ودمرت بيـوت العبادة وحـولت جنباتها المقـدسة إلى إسطبلات لـلخيول.. لقـد تدنست أيقونات القديسين، وعمت الأحـزان فى كل مكان، وعلا النحيب فى مخـتلف الأركان ورانت على الكل علامات الموت.. أين شجاعتك كورنثة، وأين أنتم يا أبطال أثينا وصناديد أركاديا؟».

غير أننا نجـد زعيم الفلاسفة الوثنيين آنذاك وهو ليـبانوس يقدم تفسيـرا آخر لتلك الأحداث المهولـة؛ فهو يرجـع البلاء كله إلى غـضب الآلهة الوثنيـة التى استـشاطت غـضبـا عندما اغـتال المسيحيون الإمبراطور چوليان (٣٦١ ـ ٣٦٣م) الذى كان قد نبذ المسيحية وارتد إلى الوثنية. فلو أن المعابد القديمة ـ كما يقول ـ بقيت مفتوحة الأبواب تتقبل الأضحيات للأرباب لما سمحت الآلهة بأن تمس الإمبراطورية بهذا الجحيم من الحديد والنار!.

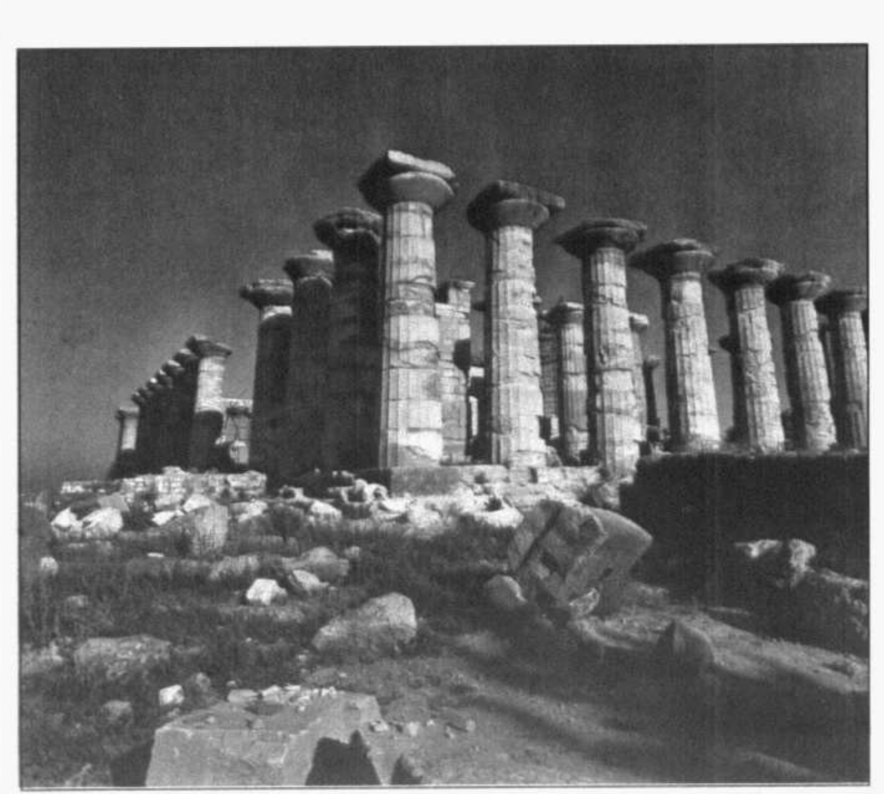
الإمبراطور أركاديوس

توفى الإمبراطور ثيـودوسيوس سنة ٣٩٥م بعد أن قسم الإمـبراطورية بين ولديه: أركاديوس للنصف الشرقى، وهونوريوس لـلنصف الغربى. ولقد استـفحل خطر القوط فى القـسطنطينية فى عهد أركاديوس، إذ تزوج هـو من ابنة لأحد ضباط الجرمان، بينمـا تغلغل القوط فى قلب الجيش الرومانى وملأوا أجنحة القـصر الإمبراطورى، وعلا نجم زعيمهـم غايناس الذى أصبح يعين ويقيل الوزراء كيفما يشاء. وثار الرأى العام فى القسطنطينية ضد هذا الوضع الخطير المهين. وتحرك أسقف مدينة قورينا ويدعى سينسـيوس من أراضى ليبيا قاصدا قصر الإمـبراطور على البسفور لكى يوقظ هذا الإمبراطور الصبى الغافل من غفلته، وألقى أمـام الإمبراطور ورجال بلاطه مقولة جريئة هاجم فيهـا تسلط القوط على أمور الدولة، ساخرا فى نفس الوقت من مـظاهر الترف والدعة التى تردى فيـها الإمبـراطور وبلاطه من زمرة المنافـقين. ومما قاله سينسـيوس لأركاديـوس: «قم أيها الراعى واحتـرس من الذئاب فهى وإن احُتضِنتْ من صـغرها وبَدَتْ مسـتأنسة فلا بد يومـا أن تكشر عن

أنيابهـا لتلتهم القطيع، ثم لا تلبث أن تنقض على الراعى نفسه لتـأتى عليه تماما كما فعلت مع القطيع. . . ».

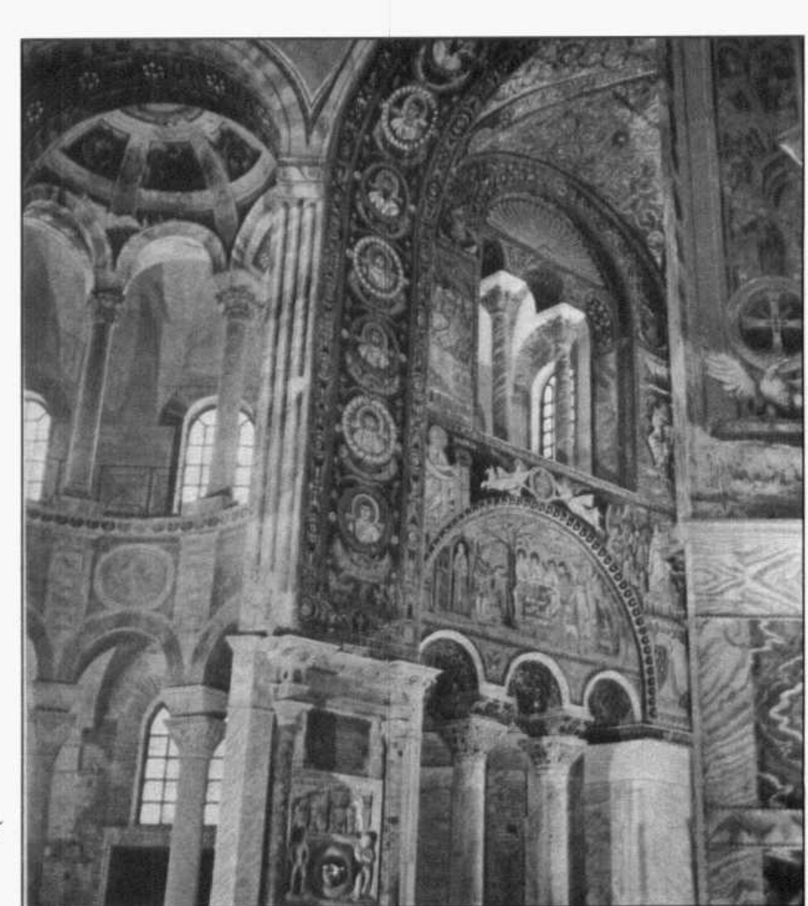
لقد أتت مقولة سـينسيوس أكلها، إذ أثارت المشاعر فى العاصمـة الشرقية ضد القوط وزعيمهم غـايناس، وفى نهاية سنة ٤٠٠م دبرت السلطات مؤامرة تم فيهـا اغتيال غـايناس وأتباعه فى ضـربة واحدة. وقد هلل الناس فرحـا، وكتب الشعراء قصائد طوال بهذه المناسبة. وتصور القوم أن الغُمة قد انقشعت وما كانوا يعلمون أنه بعـد غايناس سوف تبتـلى الإمبراطورية بقوطى آخـر أشد وأنكى ألا وهو آلارك.

لقد جـاهد النصف الشرقى من الإمبـراطورية الرومانية لكى يعـايش الخطر القوطى دون أن يصاب بالانهيار، وساعد على ذلك الصمود موقع بيزنطة الإستراتيجى المتميز، إلى جانب أسوارها العالية الحـصينة، كما لعبت الدبلومـاسية البيزنطيـة الذكية دورها فى التخفـيف من غلظة الزعماء الجرمان تارة بالهدايا وحـفلات الاستقبال فى القـصر الإمبراطورى وأخرى باستضـافة أبناء زعماء القبائل ضيوفا فى القصر الإمبراطورى، حيث تلقنوا أساليب الحضارة وقواعد الدبلوماسية.



معبد أبوللو قورينية – ليبيا – العصر الرومانى





كنيسة راڤينا البيزنطية

بعد أن قسم الإمبراطور ثيودوسيوس الإمبراطورية إلى قسمين، جاء النصف الغربى من نصيب ابنه هونوريوس الذى كان بدوره يستعين بزعيم جرمانى خطير اسمه ستيليكون كقائد أعلى للجيش الرومانى. وكان ستيليكون يخطط للاستيلاء على إقليم إلليريا التابع للنصف الشرقى للإمبراطورية؛ ولهذا فإن السلطات فى النصف الشرقى لم تجد غضاضة فى تشجيع الزعيم القوطى آلارك على التصدى لمخطط ستيليكون، بل وأنعمت عليه بلقب «سيد الجند الأعلى فى إلليريا» (Magister Militun Illyricum).



أسلحة رومانية

٣٢

أما آلارك فقد قرر أن يزحف غربا ليستولى على إيطاليا نفسها، فعبر برجاله جبال الألب اليوليانية، وخوفا من الحصار والمجاعة اضطرت مدن الشمال الإيطالى إلى فتح بواباتها للغازى القوطى الجديد، بينما جمع الموسرون كنوزهم ولاذوا بالفرار بحرا إلى جزر سردينيا وصقلية اتقاء لغائلة المتبربرين.

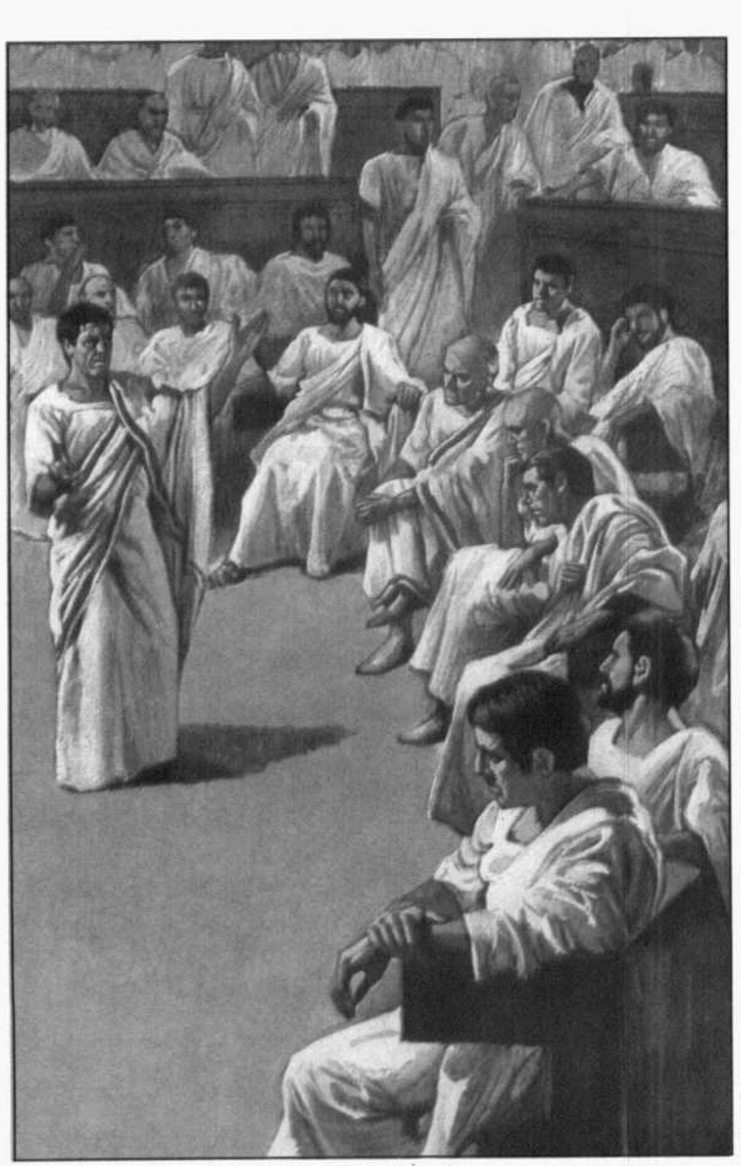
فى هذا الجو المخيف نشطت صنوف شتى من الأراجيف، فهرع الكهان لاستشارة آلهة المعابد، ولكن وحيها نطق بسوء المصير. وقد تزامن هذا الشعور بالهلع مع علامات طبيعية مرعبة من خسوف للقمر ونشوب للحرائق وهبوب للعواصف هنا وهناك. وفسر الناس كل ذلك بنذير للسوء القادم. وانتقلت حمى الفزع إلى القصر الإمبراطورى الذى نقل من روما إلى ميلان، وفكر أفراد الحاشية فى الهرب. ولكن ستيليكون أقنع الإمبراطور هونوريوس بضرورة البقاء فى ميلان لرفع معنويات الشعب، ثم روج ستيليكون لرواية خيالية مؤداها أن ذئبين قد هاجما الإمبراطور هونوريوس وهو يتجول فى ضواحى ميلان ولكن الذئبين قد قتلا بمعجزة، وعندما بقرت بطنا الذئبين عثر بداخلهما على كفين آدميتين. وقد بادر عرافو القصر بتفسير تلك العلامة بأن يدى زعيمى القوط والوندال سوف تقطعان بواسطة الجيش الرومانى.

وقعت مناوشات بين الزعيم الجرمانى آلارك وبين الجيش الرومانى بقيادة الزعيم الجرمانى (المرتزق) ستيليكون، وفى آخر الأمر اتفق كل من آلارك وستيليكون على غزو إقليم إلليريا سويا. ولما أن فاحت أخبار هذا الاتفاق ارتفعت الأصوات فى الغرب تتهم ستيليكون بالخيانة، وقد عبر عن ذلك صراحة القديس چيروم مؤكدا أن هذا المتبربر قد جرَّ الخراب على روما. كما أن الجند الرومان عبّروا عن تذمرهم بسبب ازدياد أعداد الجرمان فى صفوف الجيش الرومانى، مما اضطر الإمبراطور هونوريوس إلى تدبير مؤامرة تمَّ فيها اغتيال ستيليكون فى ٢٢ أغسطس ٤٠٨م. وخير دليل على خيانة ستيليكون أن الفرق الجرمانية التى كانت تخدم فى الجيش الإمبراطورى سرعان ما هجرت المعسكر الرومانى وانضمت علانية إلى معسكر آلارك، وفى أثناء ذلك كانت تعزيزات قوطية تفد من وراء نهر الدانوب على معسكر آلارك، وبعدها وصلت فرقة أخرى بقيادة صهره أتولف. وعندها قرر آلارك أن يزحف على مدينة روما نفسها!

استولى القوط على مدن أقويليا وپادوا وكريمونة، وقطعوا على العاصمة روما سبل الاتصال بالعالم الخارجى بضرب حصار حول أسوارها، وسرعان ما شحت المؤن وانتشرت الأوبئة، وسقط الكثيرون من الجوع أو الخوف أو منهما معا، واضطر بعض الأغنياء إلى التبرع ببعض مما لديهم لشراء الخبز من السوق السوداء وتوزيعه على المجوعين فى المدينة المحاصرة، وكان على رأس المتبرعين أرملة الإمبراطور الراحل جراتيان، غير أن أرملة القائد الجرمانى ستيليكون لم تتبرع بشىء للفقراء، فحامت حولها الشبهات وسرت إشاعة بأنها على اتصال سرى بالعدو القوطى، فقبض عليها وتمَّ إعدامها.

أدرك أهل روما أن الكارثة واقعة لا محالة، فأوفدوا سفارة إلى معسكر آلارك يفاوضونه فى تسليم المدينة إليه على أن يؤمّنهم على حياتهم وأملاكهم، ولكن الزعيم القوطى رد على السفراء بقول ساخر: «اعلموا أنه على قدر ما يشتد صلب العود يسهل جزه بالمنجل»، ثم طلب إلى السفراء أن يسلموه ما تحتويه المدينة من كنوز ذهبية وفضية إلى جانب الأسرى من الجرمان.

وعندما تأزم الموقف إلى هذا الحدّ طالب نفر من الوثنيين فى روما بضرورة تقديم الأضحيات للآلهة القديمة، ووجد محافظ روما نفسه مضطرا إلى أن يلفت نظر البابا إنوسنت الأول بأن يغمض عينيه عن قيام الشعب الرومانى بتقديم الأضحيات للآلهة الوثنيّة بشكل علنى. ثم وجه الرومان سفارة جديدة إلى معسكر آلارك يعرضون عليه خمسة آلاف قطعة من الجلود الأرجوانية اللون، وثلاثة آلاف رطل من التوابل. ولسداد كل هذا فرضت السلطات ضريبة خاصة على أغنياء المدينة، ولقد استجاب البعض بينما تحايل الكثيرون للتهرب من الدفع.



مجلس السيناتو - روما

ولما أن طال الحصار وتعثرت المفاوضات واشتد الجوع هاجت العامة وهجموا على محافظ

المدينة وأمطروه بوابل من الحجـارة حتى هلك. واختلط الحابل بالنـابل، واقتحم الدهماء بيوت السادة ينهـبون تماثيلها الفضية والذهبية وألقوا بـها فى النار لتصهر فيحولونها إلى عملات.

بعد أن تسلم آلارك جزءا من الفدية المطلوبة سمح لأهل روما بالخروج من الحـصار لمدة ثلاثة أيام عـبـر بعض البوابات المحـددة وذلك للتـزود بالمؤن. ولم يفوت جند آلارك هذه الفـرصة، فأخذوا يبـيعون للناس بعض أغراضـهم بأثمان خيالية. هذا، وقد استجابت السلطات فى روما لمطلب آلارك فأطلقت سراح من لديها من أسرى چرمان، فجاء هؤلاء ليرفعوا من عدد الجند فى المعسكر القوطى المتحفز.

تراجع آلارك بعد هذا إلى منطقة توسكانيا لكى يراقب مدى التزام السلطات الرومانية بتنفيذ ما اتفق عليه بين الطرفين، ويبدو أن الإمبراطور هونوريوس لم يكـن جادا فى مراعاة تنفيذ الاتفاق المبرم، فلقـد اختار شريـكا له فى حكم النصف الغربى للإمبـراطورية اسمه قـسطنطين شريطة أن يزوده ببعض الفرق العسكرية للتصدى لآلارك. وعليه فإن آلارك أخذ يشدِّد من موقفه مرة أخرى، فطلب من هونوريوس مزيدا من الفـضة وأن يسمح له بإقـامة معاقل قـوطية فى البندقية وإسـتريا ودلماشيا، وأن ينعم عليه بلقب «سيد الجند الأعلى» لسائر جيوش الإمبراطورية فى الغرب. وكانت هذه المطالب بمثـابة إلقاء القفـاز فى وجه الإمبـراطور، وعليه ففى نـهاية سنة ٤٠٩م زحف آلارك لحصار رومـا مرة ثانية، فاستولى فى طريقـه على ميناء بورتو على نهر التيبـر كى يحرم روما من وصول المؤن، ثم وجـه طلبا إلى مجلس السـيناتو بضرورة خلع هونوريوس عن العـرش وتنصيب شخص يدعى أتالوس بدلا منه.

وكان أتالوس هذا ابنا لمحـافظ سابق لروما، وكـان على المذهب الأريوسى، كمـا كان على علاقـة طيبة مع آلارك. وبالفعل نصَّب أتالـوس نفسه إمبـراطورا على روما، وراح يوزع مناصب الدولة على أتباعه، وأفصح أمـام السيناتو عن أمله فى توحيد الإمبراطورية شرقيـها وغربيها تحت صولجانه بمؤازرة القوط وسيدهم آلارك.

فى أثناء ذلك كان الإمبراطور الشرعى هونوريوس حبيسا فى أحد القصور فى مدينة راڤنا، ولما كان عاجزا عن التصدى لآلارك ولغريمه أتالوس فإنه عرض على الأخير أن يعترف به شريكا له فى الحكم، ولكن أتالوس رفض العرض وهدد بالقبض على هونوريوس وتشويه خلقته ثم نفيه إلى إحدى الجـزر. وفزع هونوريوس وفكـر فى الهرب إلى القـسطنطينية للاحـتمـاء بجوار ابن أخـيه ثيودوسيـوس الثانى، ولكن إمبراطور القـسطنطينية كان هو أيضا يرتعـد خوفا من آلارك، إذ باتت الإمبراطورية الرومانيـة بنصفيها المنعزلين ـ على حـد تعبير المعاصرين ـ «ألعـوبة فى أيدى مغتصب معتوه هو أتالوس ومتبربر فاجر هو آلارك».

وسرعان ما دبَّ الخلاف بين الزعيم القوطى آلارك وحليفه الرومانى أتالوس مغتصب العرش؛ ولذا فقد قبض آلارك على أتالوس وابنيه واحتجزهم جميعا رهائن فى معسكره. وبعدها قرر آلارك أن يشق طريقه بالسيف ثم ضرب حصارا حول روما للمرة الثالثة فى أغسطس لسنة ٤١٠م.

سقوط روما

اشتدت وطأة الحصار على أهل روما فهلك الكثيرون منهم جوعا. وتروى المصادر أن نفرا من الجوعى قد جن جنونهم فأقدموا بالفعل على أكل لحوم البشر. وفى ليلة الرابع والعشرين من أغسطس ٤١٠م قام بعض العبيد الذين كانوا فى خدمة سيدة نبيلة تدعى آنيشيا بروبا بفتح بوابة سالاريا لقوات آلارك، ويقال: إن هذه السيدة قد أمرت عبيدها بفتح البوابة بدافع الشفقة على أهالى روما الذين بلغ بهم اليأس حد الجنون والهوس.

اقتحم القوط بوابات روما وهم يتصايحون ويقرعون الطبول، وأشعلوا الحرائق فى المبانى، والتهمت ألسنة النيران بعض القصور الفاخرة، ثم أطلق آلارك رجاله لنهب المدينة، وتتحدث المصادر عن حالات اغتصاب عديدة للصبايا والعذارى والراهبات. ويؤكد المؤرخ البيزنطى پروكوبيوس (القرن ٦م) أن بعض البنايات قد سويت بالأرض ولم يبق منها أثر ينعى من بناه، وأن القتل كان جماعيا للشيب والشبان وللنساء والأطفال. ومن المبانى التى التهمتها النيران: قصر ڤالريوس، وقصر آڤنتين، ومعبد يونو، والمذبح الفضى فى قصر اللاتيران، وهو الذى كان الإمبراطور قسطنطين الكبير قد قدمه هدية للبابا سلڤيستر، وكان وزنه ٢٠٤٥ رطلا من الفضة الخالصة، كما التهمت ألسنة النيران صالة الكيوريا (المجلس) البابوية.

وبعد نهب وسلب دام ثلاثة أيام قرر آلارك الخروج من مدينة روما وعبور البحر الأبيض لإرساء قواعد مملكة قوطية على الساحل الأفريقى. وقد جرَّ آلارك فى موكبه جاللا پلاسيدا شقيقة الإمبراطور هونوريوس إلى جانب عدد كبير من رجال الدين.

الهون

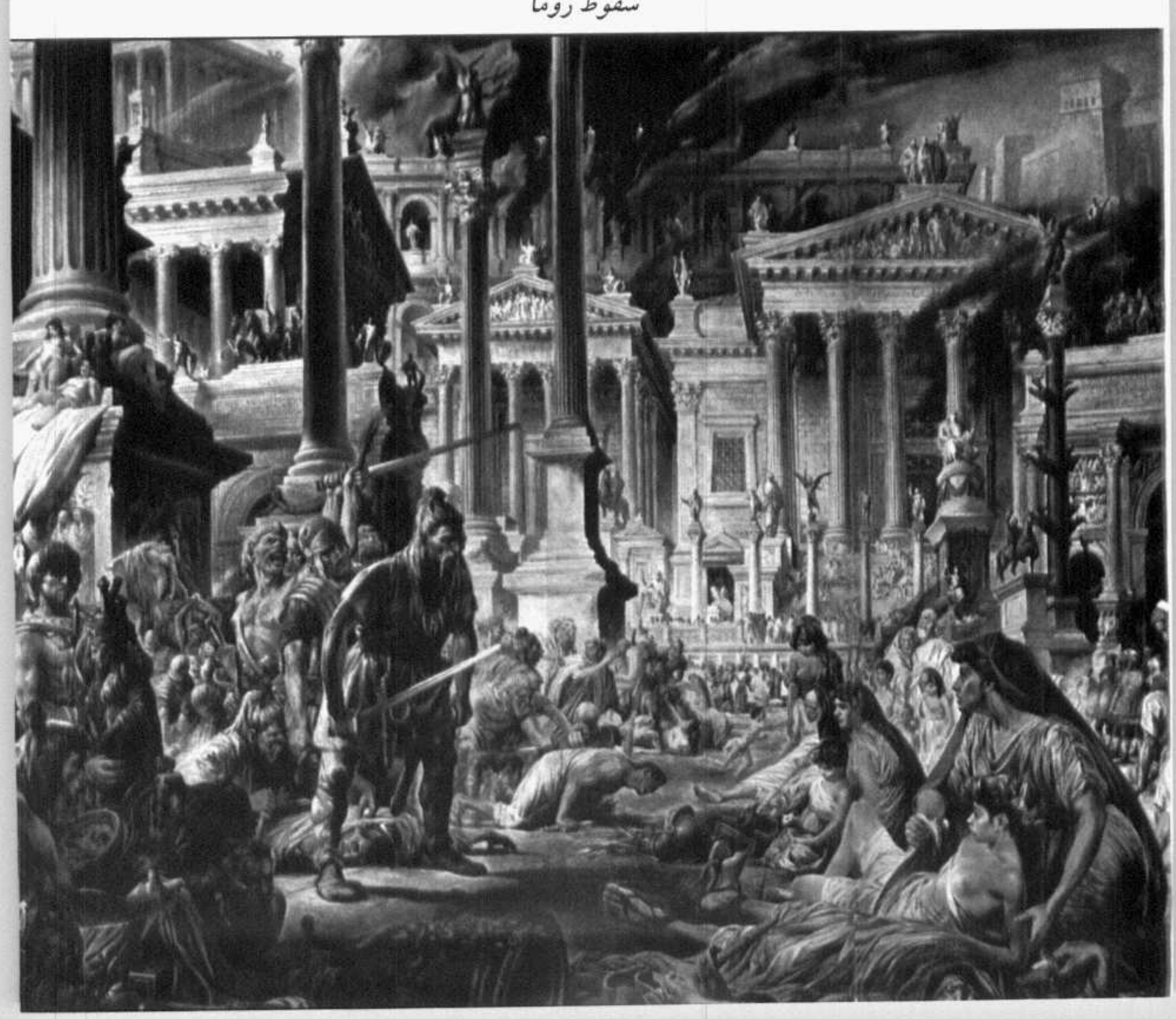
لم تنته محنة روما عند هذا الحد، ففى كل فجر جديد كانت أمواج من البرابرة تجرف الناس فى كل صوب. وهذه المرة جاءت الكارثة من جوف آسيا، من رعاة منغوليا المعروفين باسم «الهون» (Huns). ويحدثنا المؤرخ إميانوس مارسللينوس (نهاية القرن الرابع) عن وحشية الهون، وكيف أنهم عندما يولد لهم وليد فإنهم يقومون بجرح وجنتيه كى لا ينبت له شعر فى ذقنه. وهو يشبه بنيتهم الجسمية بجذوع الشجر المشوهة، وهم لا يطهون طعامهم بل يجففون اللحوم تحت أفخاذهم على ظهور الخيل التى يندر أن يترجلوا عنها. وهم يغطون أجسادهم بجلود الفئران ولا

يخلعونها حتى تبلى تماما، وهم أيضا يغطون سيقانهم بشعور الماعز. ولا تلمس أقدامهم الأرض حتى وقت الطعام والشراب، بل إنهم ينامون على ظهور جيادهم، وقد مالوا على رقابها قليلا، كما أنهم يعقدون مؤتمراتهم مع رؤسائهم فى دائرة وهم على ظهر خيولهم.

آتيللا

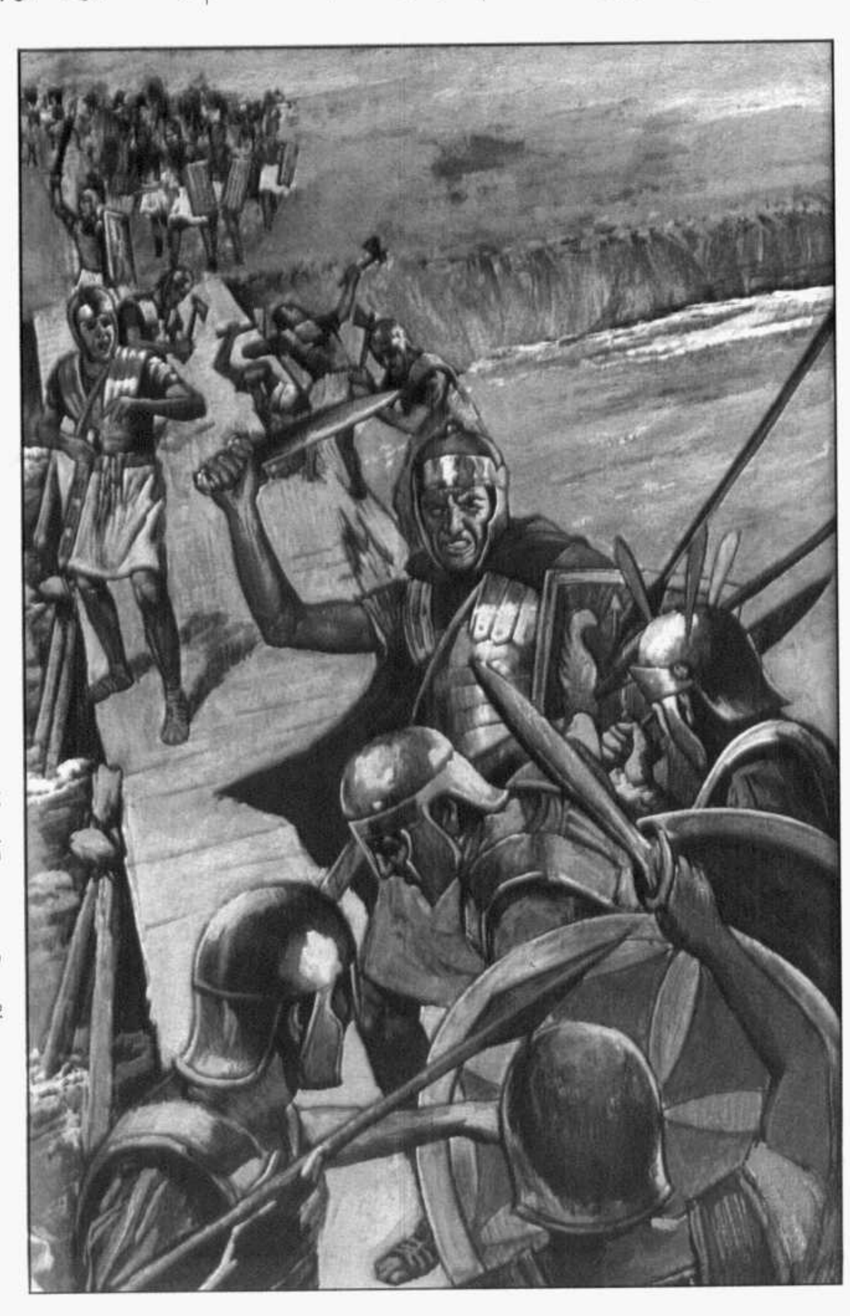
لقد تمكن الهون من الاستيلاء على منطقة پانونيا (المجر حاليا) بعد أن نجح قائدهم الجبار آتيللا فى تدمير القوى الچرمانية التى صادفته من بحر قزوين إلى البحر الأسود إلى شواطئ الدانوب. وبات آتيللا يتربع على عرش إمبراطورية مغولية كبرى امتدت من جوف آسيا إلى قلب أوروبا، وكانت ترقد تحت قدميه تلال من الذهب لا حصر لها. والهون هم الشعب الوحيد من بين الجماعات المتبربرة الذين لم يدخلوا كجند مرتزقة فى خدمة الرومان. وقد أثار

سقوط روما



اسمـهم الرعب فى قلوب سكان أوروبا، حـتى إن صلوات الناس قد تضـمنت صيغة جـديدة من الابتهال إلى السماء بأن «تنجى العالم مـن شرور إبليس وكيد آتيللا»! وكان آتيللا قد أسر آلافا من القوط وجرهم معه فى موكبه كعبيد جنوبى نهر الراين لاقتحام أرض غالة (فرنسـا القديمة). وقد وصلت جحافل الهون إلى مدينة متز فى ٧ أبريل سنة ٤٥١م، ودمرت المدينة تماما، ثم زحف الهون صوب باريـس، ولكـن آتيللا سرعـان ما عـدل عن خطتـه ويمم جنوبـا شطر مدينة أورليانز.

وجــدت الــسـلــطــات الرومانية الـغربية نفسها فى موقف حـرج للـغـاية، فكلف الإمبراطور فـالنتنيـان الثالث (٤٢٥ ـ ٤٥٥م) قـائد جـيـوشـه أثتيوس بالتصدى لآتــيــلــلا وجـحـافله. ولم يجــد الـقــائد



جنود وقواد رومان فى معركة

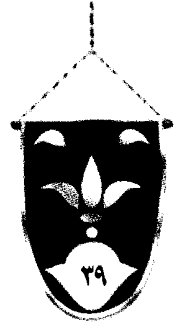
الرومــانى حلا إلا بمخــاطبة ود الزعــماء الچرمــان ـ الأعداء التـقليديين لـروما ـ لمجابهة العدو الآسيوى المشترك. وهكذا فإن الجيش الرومانى الذى تصدى لآتيللا فى غالة كان يضم عناصر مــرتزقة أو معاهدة من مختلف القبــائل الچرمانية؛ من برغنديين، وآلان، وفرنجة، وسكــسون، وقوط غربيين وشرقــيين. وأطبق الجميع على معسكر الهون فى حقــول قطالونيا على مقربة من بلدة تروى (Troyes) فى غالة، ولأول مرة تلحق الهزيمة بجيوش آتــيللا الجبار. وقد هلك فى هذه المعركة ملك القوط الغــربيين الجديد ثيودريك وذلك تحت لــواء العلم الرومانى. واضطر آتيللا بعد هذه الهزيمة المرة إلى التقــهقر قبالة مقر إقامته فى پانونــيا. وفى طريقه عرج على إيطاليا وضرب حصــارا حول مدينة أقويليــا ثم دمرها بعد أن هجرها أهلهــا جميعا، ثم مــال على مدينة البندقية وضربها ثم هبط على سهل نهر پو ودخل مدينة ميلانو.

ازداد خطر آتيللا على إيطاليا واضطر الإمبراطور ڤالنتنيان إلى الفرار من راڤنا إلى روما، بل إن القائد أئتــيوس نصح الإمبــراطور بأن يهرب إلى غالة؛ لأن آتــيللا كان عازمــا على شق طريقه بالسيف إلى رومــا نفسهــا، ثم تقرر إيفاد سفــارة من روما مؤلفــة من البابا ليون الكبــير والقنصل إثيانوس للتوسل إلى آتيلــلا كى يعدل عن مهاجمة رومــا مقابل جزية مهــولة من الذهب والفضة. وبعد أن وصلت كنوز الذهب والفــضة بالفعل إلى مــعسكر آتيللا، قرر الانســحاب إلى بلاطه فى پانونيا، وفى الطريق انتشر الوباء بين رجاله. وفى صبيحة أحد الأيام اكتشف أتباعه أن نوبة جنونية قد أتت عليه وهو مخمور أثناء الليل فمات، وكان ذلك فى سنة ٤٥٣م.

وتنفس الرومــان الصعــداء، وفســر المعاصرون مــوت آتيللا بمعــجزة ســماوية أنقــذت روما والرومان من مخالب التنين الآسيوى الرهيب!

الوندال

فى أثناء ذلك كانت جماعــة چرمانية أخرى تعبث بأقدار الناس فى كل من غــالة وإسبانيا، وتلك هى قبيلة الوندال. فبعد أن اصطلى الوندال بسياط آتيللا، لاذوا بالفرار من غالة إلى إسبانيا. وفى إسبانيا هجم الوندال على الكتائب الرومانيــة المرابطة هناك وفرضوا أنفسهم سادة على البلاد. وما لبث الوندال أن شيــدوا لهم أسطولا بحريا، ويقال: إن نفرا من الخبراء الرومــان قد نقلوا سرا أسرار بناء الأسطول للوندال مقابل رشوة ضخمة. ولقــد ارتبطت سيرة الوندال فى إسبانيا بتخريب الكنائس ونهــبها خــاصة تحت حكم ملكهم جــوندريك. وبعد موت جــوندريك تولى الحكم على الوندال ملك جديد اسمه جنزريك، الذى كان مُقلا فى الكلام، غضوبا إلى حد الجنون، تواقا إلى الذهب وملمسه، ماكرا فى زرع الخصومة بين منافسيه، جبارا فى كبح جماح رجاله الأشداء.



جنزريك

تمكن الوندال بأسطولهم البحرى وبالسفن الرومانية التى استولوا عليها من غزو جزر البليار واكتشاف شواطئ موريتانيا. وكان جنزريك مقتنعا بأن مستقبل أمته لن يكتمل إلا بالسيطرة على حوض البحر الأبيض وتحويله إلى بحيرة وندالية، ومن ثم فقد أخذ يخطط للسيطرة على الشمال الأفريقى لكى يحرم الرومان من الغلال حتى تصبح كل من روما والقسطنطينية تحت رحمته!

وعندما تسربت أخبار المشروع الوندالى إلى بلاط القسطنطينية، أشارت أصابع الاتهام إلى بونيفاس حاكم ولاية أفريقيا الرومانى بالخيانة، وبأنه يتآمر مع الوندال مقابل أن يسمحوا له بالانسلاخ بجزء من ولاية أفريقيا يحكمه لحسابه. وقد بادرت السلطات الرومانية بإرسال حملة تأديبية ضد بونيفاس، وهكذا تمزق الصف الرومانى. كما أن المنازعات المذهبية بين فرقة عرفت باسم «الدوناتيين» وبين الكاثوليك فى قرطاچ قد خلقت جوا من الفوضى والمشاحنات العقائدية فى الشمال الأفريقى.

شجعت هذه الأحوال المضطربة الملك الوندالى جنزريك على الإبحار من جنوب إسبانيا قبالة الساحل الأفريقى. وقبل رحيله انقض جنزريك على قبيلة چرمانية من جماعة «السويڤ» وأبادها تماما. ثم أبحرت أمة الوندال وفى ركابها آلاف من الأسرى والعبيد، ويقدر عدد أفراد هذه الهجرة بقرابة ٨٠,٠٠٠ من رجال ونساء الوندال. رسا الأسطول الوندالى فى طنجة ومنها تحرك الجند الوندال نحو موريتانيا القيصرية زحفا نحو العاصمة قرطاج. وكانت مسيرة الوندال تتراوح بين ستة إلى ثمانية كيلومترات فى الساعة، ويرجع السبب فى بطء الحركة إلى ثقل العربات وأحمالها على الخيول التى تجرها، وأيضا بسبب انشغال رجال الحملة فى نهب وسلب جميع البقاع التى مروا عليها.

كان مجرد ذكر اسم الوندال كافيا لإثارة الذعر فى نفوس الناس، فلقد أتت الأخبار من غالة وإسبانيا وإيطاليا عن وحشية هؤلاء القوم وبربريتهم التى فاقت كل وصف. وكان أشد الناس هلعا رجال الدين الكاثوليك بسبب ما عرف عن الوندال من تعصب مهووس لمذهبهم الأريوسى ومن كره بالغ للكثلكة. وقيل عن الوندال: إنهم تفردوا فى سلخ فروة رءوس ضحاياهم ليزينوا بها سروج جيادهم وقت المعمعة!

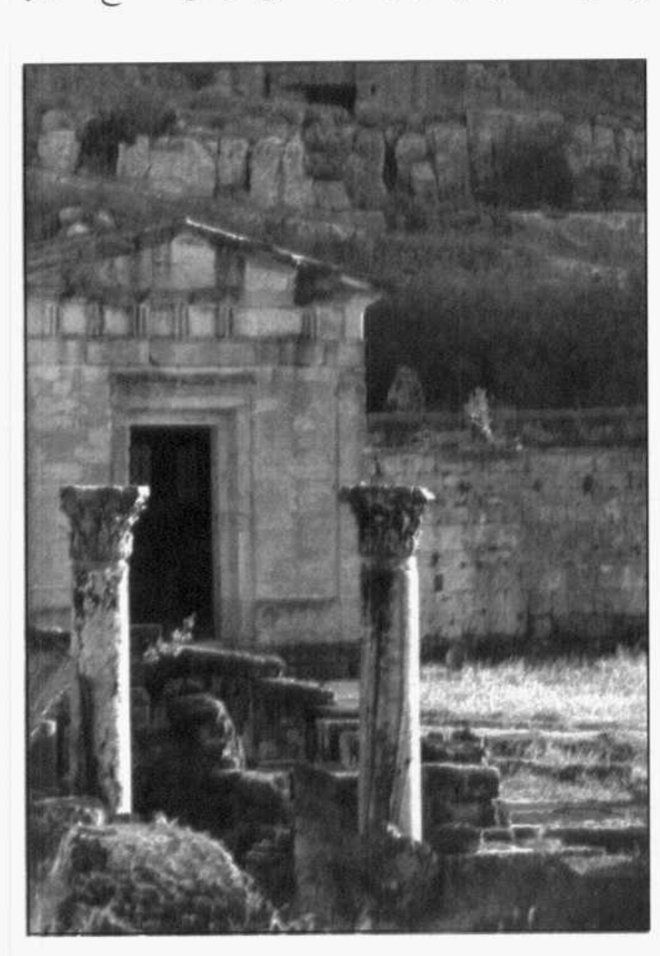
٤٠

القديس أغطينوس

بينمـا كان الإعصـار الوندالى يجتـاح الساحل الأفـريقى، كان الفـيلسوف أغسطينوس معتكفا فى مدينة هيو (عنابة حاليا) وهو فى حيرة شديدة من أمور هذا العالم، فلقد أصيبت الرعية من خاصة وعامة بالهلع، واختفى الرعاة من منابرهم، وخرست النواقيس، واشـتعلت ألسنة النيران فى الكنائس. وفـر صغار الكهنة من وجه العدو يضربون الطرقات والبرارى كالشحاذين. ودوت صرخة صاحب «مدينة الله» تقول: «إن الإنسان العـاقل هو الذى لا يغتم على انهيار عـمود من الخشب، ولا على انهيار كوم من قرميد الحجر، ولا حتى على موت يصيبه؛ لأننا جميعا مخلوقات ذائقة كأس الموت لا محالة، فعلام الحزن إذن؟». ولا يملك هذا الرواقى العمـلاق إلا أن يعلن لسامعيه وتلاميذه بأن كأس الموت حـق على الجميع، وأن آلام الجـسد تطهـر الأرواح، وأن على الناس أن يبتـهلوا إلى السماء وقت الضيق لاجتياز مرارة الكأس التى لا مـفر من تجرعها، وأنه على الراعى الصالح ألا يفر هاربا مـن القطيـع المروِّع؛ لأنه لا يليق بربان السفينة أن يهجر سفينته وهى تغرق.

لقـد بلغ جـرم الوندال فى الشـمـال الأفريقـى حدا بشـعـا للغـاية، فنحـن نعلم من رسـالة للبـابا ليـون الكبـيـر أن أعـداد الراهبات اللائى هُتكت أعراضهن وتمَّ اغـتصـابهن على أيدى الجند الوندال كانت أعدادا مهولة؛ ولذا فـإن البـابا يطلب فى رسـالة إلى أساقفـة شمال أفريقيا ومـوريتانيا القيـصـرية أن يعـاملوا هؤلاء الضحـايا ولكأنهن «عذارى أرامل من غير ذنب أتينه».

وفى نوميديا ضرب الوندال الحـصـار حـول سـائر المدائن، فـانتـشرت المجـاعـات وتفـشت الأوبئـة بسـبب كـثـرة الجـثث، وامـتـلأت الطرقـات بأمـواج من



ولاية أفريقيا الرومانية - بقايا كنيسة بيزنطية - ليبيا

الخلق وهم يولولون. ولما أن اقتربت جحافل الوندال من بوابات قرطاج، أصيب الناس وراء الأسوار بالفزع الشديد، وهربت أعداد منهم إلى الجنوب، ولكن الوندال تصيدوهم وقتلوهم عن بكرة أبيهم. ولقد قام الوندال على مرأى ومسمع الجميع بإحراق بعض الأساقفة أحياء، ومن بينهم بامنيانوس، ومانسيوتيوس. فى أثناء ذلك كان الكونت بونيفاس ـ الذى اتهم بالخيانة ـ يعسكر مع رجاله خلف أسوار مدينة هپو التى اغتصت باللاجئين. وفى نفس الوقت كان القديس أغسطنيوس يرقد داخل نفس المدينة التعيسة وهو فى حالة مرض شديد. ورغم شدة الإعياء وحمل السنين، ظل الرجل يلهم تلاميذه ومريديه بجميل العزاء كى يجتازوا معه التجربة المرة، ولما أن دنت ساعة الخلاص من أوزار هذا العالم صرخ أغسطنيوس على مسمع من تلاميذه: «اللهم أطلق عبدك بسلام»، وتلقف الجميع الصرخة الأغسطينية ودوت بها الحناجر. وبعد قليل فاضت روح الرجل إلى باريها، وكان ذلك فى ليلة الثامن والعشرين من شهر أغسطس لسنة ٤٣٠م. وسقطت مدينة هپو فى أيدى الوندال، وكان نصيبها النار والدمار عن آخرها.

آثار من حضارة مدينة قرطاج





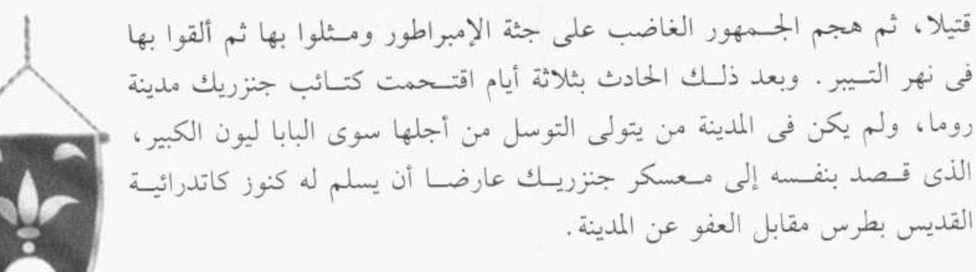
وفى التاسع من أكتوبر ٤٣٩م اقتحم الوندال أسوار قرطاج، وسقطت العاصمة سقوطا مروعا؛ إذ استولى البرابرة على كل ما فيها من أخضر ويابس، ونهبوا الكنائس من نفائسها وأدوات طقوسها، كما اعتدوا على الحرمات دون تمييز. وما لبثت معاول الهدم والتخريب أن اجتاحت آثار قرطاج القديمة وكاتدرائياتها، كما حولت بعض كنائسها إلى إسطبلات للخيول. وبعد السقوط أصيب رجال الدين الكاثوليك بحال من الجبن الشديد، ففى مواعظهم أيام الآحاد تجنبوا الإشارة من قريب أو بعيد إلى الكارثة الكبرى التى حلت بقرطاج. ولئن حدث فى ذات موعظة أن أشار أحدهم من على منبره ـ ولو بطريق السهو ـ إلى اسم فرعون أو نبوخذ نصَّر، فإن جنزريك كان يفسر ذلك بأنه هو المقصود من وراء ذكر هذا الاسم أو ذلك، فيأمر بالقبض على الكاهن الواعظ ويسام العذاب ألوانا.

فرض الوندال سيطرتهم على الشمال الأفريقى بقبضة من الحديد، كما هيمن أسطولهم على حوض البحر الأبيض المتوسط، وهكذا فإنه بعد سقوط قرطاج فى أيدى جنزريك باتت كل من روما القديمة وروما الجديدة (القسطنطينية) فى خطر داهم. ولقد عمل الإمبراطور الغربى ڤالنتنيان على إصلاح أسوار روما التى تهدمت وعلى إقامة التحصينات لحماية ميناء نابلى. وفى سنة ٤٤٠م. قام جنزريك بحملة بحرية من ميناء قرطاج، ولكنه لم يعلن عن هدف الحملة مكتفيا بالقول: «نحن نقصد قوما أغضبوا السماء». غير أن الإمبراطور ڤالنتنيان شعر بأن الحملة موجهة ضده، فطلب إلى رعاياه التحلى باليقظة ومقاومة العدو حيثما ترسى سفائنه إلى أن تصل إليهم النجدة الإمبراطورية.

رست سفن جنزريك أول الأمر على شواطئ بلدة ليليبا، ومنها هبط الجند على جزيرة صقلية فنهبوها تماما. ولما أن علم جنزريك قرب وصول أسطول من القسطنطينية إلى صقلية، أبحر مسرعا بالعودة إلى قرطاج.

اضطر الإمبراطور الغربى ڤالنتنيان إلى فتح باب المفاوضات مع العدو الوندالى الذى لا يرحم، وقد عرض الإمبراطور أن يزوج شقيقته الأميرة يودوكسيا من ابن لجنزريك، غير أن هذه الصفقة لم تتم، إذ قام قائد رومانى يدعى بترونيوس ماكسيموس باغتيال الإمبراطور والجلوس على العرش، ثم زوج الأميرة يودوكسيا من ابنه المدعو أتتيوس. وقد كانت هذه الأحداث ذريعة كافية لجنزريك كى يجرد حملة جديدة يؤدب بها بترونيوس مغتصب العرش.

أبحر الأسطول الوندالى إلى ميناء بورتو، ورست الكتائب لتزحف برا قبالة مدينة روما. وفى الطريق أشعل الوندال الحرائق فى كل مكان، فأصيب أهل روما بالفزع الشديد، وهرب الكثيرون لا يلوون على شىء، وكان من بين الفارين الإمبراطور بترونيوس ماكسيموس نفسه. ولقد كان هذا الهروب المخزى مدعاة لأن يقوم واحد من رجال حرسه الخاص بقذفه بحجر فأرداه



قتيلا، ثم هجم الجمهور الغاضب على جثة الإمبراطور ومثلوا بها ثم ألقوا بها فى نهر التيبر. وبعد ذلك الحادث بثلاثة أيام اقتحمت كتائب جنزريك مدينة روما، ولم يكن فى المدينة من يتولى التوسل من أجلها سوى البابا ليون الكبير، الذى قصد بنفسه إلى معسكر جنزريك عارضا أن يسلم له كنوز كاتدرائية القديس بطرس مقابل العفو عن المدينة.

وافق جنزريك على التماس البابا ليون، وأصدر أوامره بإيقاف الحرائق وقتل الأنفس، ولكنه أذن لرجاله بنهب المدينة. واستمر النهب الوندالى لمدينة روما أسبوعين كاملين، تمَّ خلالهما تفريغ القصور من كل محتوياتها النفيسة، كما استولى جنزريك على النياشين والعلامات الإمبراطورية، والأعجب من هذا كله أنه أمر رجاله باقتطاع جزء من سقف چوبيتر فى معبد الكاپيتول ظنا منه أنه من الذهب الخالص، وهو فى الحقيقة من البرونز الأصفر. هذا، كما استولى الوندال أيضا على كم وافر من التماثيل القديمة والكنوز التى كان القائد تيطوس قد حملها إلى روما بعد تخريبه لهيكل سليمان فى بيت المقدس (القرن الأول الميلادى).

وحمل الوندال تلك الكنوز والآثار النادرة على ظهر إحدى سفنهم، غير أن هذه السفينة بالذات قد غرقت بما كان على ظهرها من كنوز ونفائس، وهكذا ابتلع اليم حضارة بأكملها!

وقد حمل جنزريك معه عددا من الرهائن، من بينهم أنثيوس ابن الإمبراطور بترونيوس، وأرملة الإمبراطور ڤالنتنيان وابنتيها، إلى جانب نفر من أعضاء السيناتو والكتبة وخبراء السلاح. وتفيض المصادر بأخبار مؤسفة عن أحوال الأسرى الرومان الذين اقتادهم الوندال إلى قرطاج، فعند



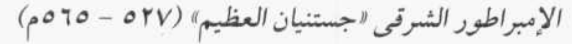
كاتدرائية القديس بطرس القديمة

وصولهم إلى الشاطئ الأفـريقى، قام القادة الوندال باقتسام هؤلاء الأسـرى فيما بينهم، بعد أن عزلوا النساء عن أزواجهم والآباء عن أطفالهم.

بعـــد هذه الحـــمـلة راح جنزريـك يرهب أراضى الـنصف الشـــرقى للإمبراطورية، فأرســل حملات بحرية نهبت الجزر اليونانـية وأسرت العديد من أهلها. وقد حـاولت السلطات فى القسطنطينية التصـدى لأسطول الوندال، كما جردت حـملة من مصر لـلهجوم على طرابلس، ولكن الأسـطول الوندالى دمر هذه الحملة (٤٦٨م).

هكذا باتت كل من روما القديمة ورومـا الجديدة عاجزتين تماما أمـام جبروت الوندال. وفى أثناء ذلك كان جنزريك قـد أطلق سراح الإمبراطورة الأسـيرة ولكنه استبـقى ابنتها يودوكسـيا ثم زوجها بالقوة من ابنه هونريك، وظلت هذه الأميرة القديسة زوجـة لهونريك لمدة ستة عشر عاما، ثم هربت سرا بعد ذلك إلى بيت المقدس.

بعـد وفـاة جنزريك سنة ٤٧٧م، خلفـه عـدد من أبنائه وأحـفـاده هم: هونريك (٤٧٧ ـ ٤٨٤م)؛ جونتـاموند (٤٨٤ ـ ٤٩٦م)؛ ترازا مـوند (٤٩٦ ـ ٥٢٣م)؛ هلدريك (٥٢٣ ـ ٥٣١م)؛ وأخيرا جلمبر (٥٣١ ـ ٥٣٤م) الذى قدر له ولدولته السقوط النهائى على أيدى الإمبراطور الشرقى جستنيان العظيم (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) وقائده المرموق بلزاريوس وذلك فى ديسمبر لسنة ٥٣٣م.


الإمبراطور الشرقى «جستنيان العظيم» (٥٢٧ - ٥٦٥م)



الفصل الثالث
شارلمان والنهضة الكارولنجية(*)

فى سنة ٤٨٦م اقتحم كلوڤس الزعيم الجرمانى لقبيلة الفرنجة حدود نهر الراين واحتل منطقة باريس فى غالة. وكان كلوڤس قبل ذلك يخدم هو وأتباعه كجند «معاهدين» فى الجيش الرومانى. وفى غالة أخذ كلوڤس وأتباعه يتمثلون بالسادة الرومان فى الملبس والعادات، إذ رأى فى نفسه ممثلا للإمبراطورية الرومانية فى بلاد الغال. وقد وقع اختيار كلوڤس على أميرة برغندية على المذهب الكاثوليكى اسمها كلوتلد (Clotild) وتزوج منها.

وينتسب هؤلاء الفرنجة الميروڤنجيون إلى جد أسطورى اسمه ميروڤتش، ويعتقدون أنهم تحدروا من نسل الآلهة الجرمانية القديمة، ومن ثم فإنهم كانوا يرخون شعور رءوسهم حتى تتدلى تحت أكتافهم علامة على هذه الأصول القديمة. وكان ملوك الفرنجة ينظرون إلى غالة على أنها ملك خاص لهم ولأولادهم من بعدهم؛ فعندما مات كلوڤس قسَّم المملكة بين أبنائه الأربعة: مملكة أوسترازيا الواقعة على ضفتى نهر الراين؛ ومملكة نوستريا الواقعة شمالى غالة؛ ومملكة برغنديا فى وديان نهرى الرون والساءون؛ ثم مملكة بروڤانس فى جنوبى غالة. وقد دخل الأبناء الأربعة (ثيودريك؛ كلوديبير؛ شلدبرت؛ كلوتار) فى صراع دامى، كلٌ يسعى لتوسيع رقعة مملكته على حساب إخوته الآخرين. ثم شهدت المملكة صراعا مريرا بين اثنين من أحفاد كلوڤس هما الأخوان سجبرت، وشلبريك. وقد هلك فى هذا الصراع عشرات من أمراء البيت المالك ومن كبار النبلاء. وكان

كنيسة راڤنا

(*) نسبة إلى كارل مارتل جد شارلمان (كارل أو شارل العظيم).

المحرك لهذه المؤامرات والاغتيالات الأميرة برونهلدة زوجة سجبرت التى دبرت سلسلة من الاغتيالات ضد خصومها، حتى قبض عليها أعداؤها وقتلوا جميع أحفادها، ثم وضعوها على ظهر جمل، وفى آخر المطاف قيدوها بشعر رأسها وأوثقوا ذراعيها وقدميها بذيل حصان جامح، فألهبوا ظهره بالسياط فمزقها إربا، وكان ذلك فى سنة ٦١٤م.

إن هذه الصراعات الدامية قد جعلت من أحفاد كلوڤس ملوكا ضعافا من أمثال سجبرت الثالث، وداجوبرت الثانى، وشلدڤيج الثانى، الذين صاروا مجرد دمى فى أيدى «صاحب البلاط» (Major Domus)، حتى إن التاريخ قد شيع هؤلاء الملوك الضعفاء باسم «الملوك العاطلين» (Les Rois Faineants).

وسرعان ما نشبت الخلافات بين حاجبى البلاط فى مملكتى نوستريا وأسترازيا، ودارت معركة بين الطرفين فى بلدة تسترى (Testry) سنة ٦٨٧م، والتى انتهت لصالح مملكة أسترازيا وحاجب بلاطها پپن هرتزال الأكبر (٦٨٧ ـ ٧١٤م).

وكان لهذا الحاجب ابن غير شرعى اسمه كارل، وحفيد يدعى ثيدوالد، ولقد قامت أرملة الحاجب (بلكتروديس) بالوصاية على هذا الحفيد بعد أن ألقت بكارل فى السجن، غير أن النبلاء ثاروا ضدها وساعدوا كارل على الهروب من السجن، ثم اعترفوا به حاجبا على بلاط أسترازيا. وكان عهد كارل الملقب «بالمطرقة» (Martel) مليئا بالحروب ضد السكسون والفريزيين والباڤار والألمانى. وفى سنة ٧٣٢م اشتبك كارل مارتل مع عرب إسبانيا تلبية لاستنجاد الكونت يود (Eudes) صاحب أقطانيا ضد الأمير عبد الرحمن الغافقى، ووقعت بين الطرفين المعركة المعروفة فى المصادر العربية باسم «بلاط الشهداء» فى پواتييه أو تور بوسط فرنسا.

كارل مارتل

توفى كارل مارتل سنة ٧٤١م بعد أن قسّم حجابة المملكة بين ولديه كارل، وپپن، ولم يعبأ بتعيين ملك للمملكة لمدة أربع سنوات، إذ كانت مقاليد السلطة فى يد ـ صاحب البلاط ـ ولم يشعر أحد أن مملكة الفرنجة بحاجة إلى دمية أخرى من البيت الميروڤنجى للجلوس على العرش الشاغر. وقد أمضى الأخوان كارل وپپن الأعوام السبعة عقب وفاة والدهما فى حروب ضد أقطانيا وباڤاريا وسكسونيا وبعض الجماعات السلاڤية. ولكى يمعن الأخوان فى السخرية من البيت الميروڤنجى فقد اختارا واحدا من هذا البيت يدعى شلدريك الثالث وأجلساه على العرش. ولكنه ظل مجرد شبح متوج وهو بحق آخر «الملوك العاطلين». وفى سنة ٧٤٧م تنازل كارل عن السلطة لأخيه پپن والمكنى بـ«القصير» (Le Bref)، واعتزل شئون العالم، ثم ارتدى مسوح الرهبان منزويا على قمم جبل سوراكت على مقربة من روما.

پپن القصير



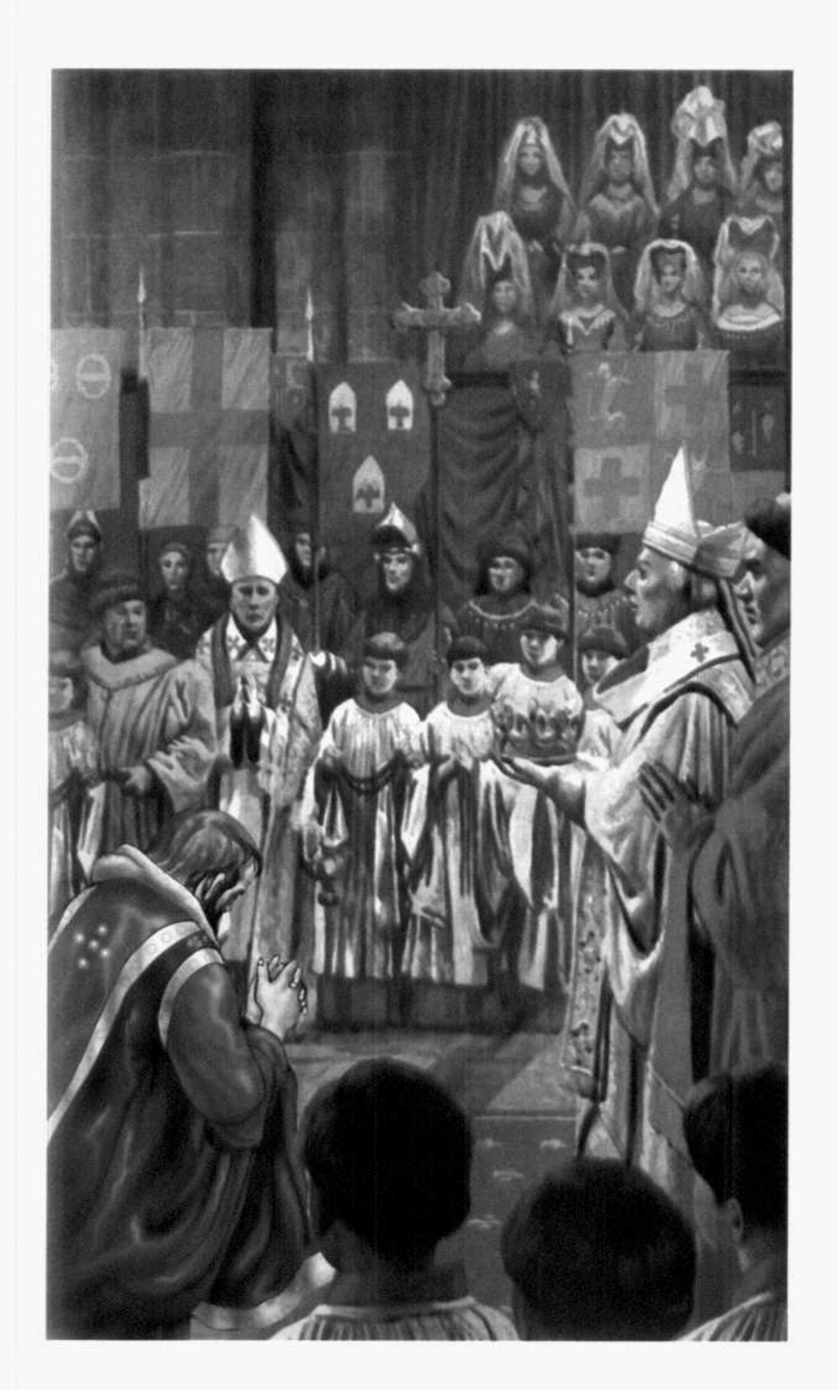
ولما أن انفرد پپن القصير بحجابة البلاط الفرنجى فى مملكتى نوستريا وأسترازيا أخذ يفكر فى وضع تاج الملك على رأسه هو، فأرسل سفارة إلى روما يطلب من البابا زكريا الفتوى فى سؤال ماكر: أيهما أحق أن يكون ملكا؟ ذاك الذى يحمل اللقب والتاج وليس له حول ولا قوة، أم هذا الذى بيده كل السلطات فيما عدا اللقب؟ ولما كان البابا زكريا فى حاجة ملحة إلى حليف قوى يناصره على أعدائه اللومبارد فى الشمال الإيطالى، فقد بادر مجيبا بأن صاحب السلطة الحقيقية هو الأجدر بأن يتوج ملكا. وعليه فقد انعقد مجلس فى مدينة سواسون سنة ٧٥١م، واقتيد الملك الميروڤنجى شلدريك الثالث إلى قاعة المجلس حيث اجتز شعره وأجبر على ارتداء لباس الرهبنة، ثم ألقى به فى أحد الأديرة النائية. ثم قام كبير أساقفة الفرنجة بونيفاس بإعلان پپن ملكا على الفرنجة، وقام بمسحه بالزيت المقدس علامة على التفويض الإلهى له فى الحكم.

اللومبارد

وكان اللومبارد وهم من عتاة القبائل الجرمانية قد دخلوا إيطاليا سنة ٥٦٨م، واتخذوا من مدينة باڤيا عاصمة لهم، ثم ما لبثوا أن سيطروا على كل أراضى السهل الإيطالى الشمالى، ودوقيتى سپولتو وبنيڤنتو. وقد تقلب على عرش اللومبارد ملوك كثيرون بلغ عددهم اثنين وعشرين ملكا، بدءا بالملك ألبوين (٥٦٨ ـ ٥٧٢م) وانتهاء بالملك دزيدريوس (٧٥٦ ـ ٧٧٤م). وقد دخل اللومبارد فى صراع ضد بقايا المعاقل البيزنطية فى راڤنا، وضد البابا الرومانى. وكان الملك اللومباردى استولف (٧٤٩ ـ ٧٥٦م) من أشد المناهضين للبابوية، وكان يخطط للزحف على مدينة روما ليخضعها للتاج اللومباردى. وفى طريقه زاحفا أرسل «استولف» بسفير إلى البابا ستيفن الثالث (٧٥٢ ـ ٧٥٧م) يطلب منه الاعتراف بسيادة التاج اللومباردى على الكرسى البابوى. وغضب البابا من هذا التحرش بسلطاته، فأنزل قرار «الحرمان» على استولف، ثم التفت البابا إلى ملك الفرنجة پپن القصير يطلب منه الحماية ضد عدوه استولف اللومباردى. ثم قرر البابا السفر بنفسه إلى مملكة الفرنجة سنة ٧٥٤م ليطلب بنفسه المساعدة العسكرية من الملك الفرنجى. ولقد أقيمت للبابا استقبالات حافلة فى مملكة الفرنجة، وخرج پپن القصير ورجال بلاطه لملاقاة البابا لحظة وصوله، وأمسك بلجام الجواد الذى كان يمتطيه البابا علامة على الولاء والود. ثم استمع الملك الفرنجى إلى شكوى البابا وطيب خاطره ووعده بالمساعدة ضد اللومبارد. وفى أبريل ٧٥٤م عقد پپن القصير مجلسا تقرر فيه أن يعمل الملك الفرنجى على أن يعيد للبابوية أملاكها فى إيطاليا



(Patrimonium) من أيدى اللومبارد، كما تعهد پپن بفرض الحماية على روما ضد أعدائها، ولقد بقى البابا ضيفا على ملك الفرنجة لبضعة أشهر، قام خلالها بإعادة تتويج پپن فى بلدة سان دينيس، كما أنعم عليه بلقب «النبالة» الرومانية أو «باتريكيان» (Ptrrician).



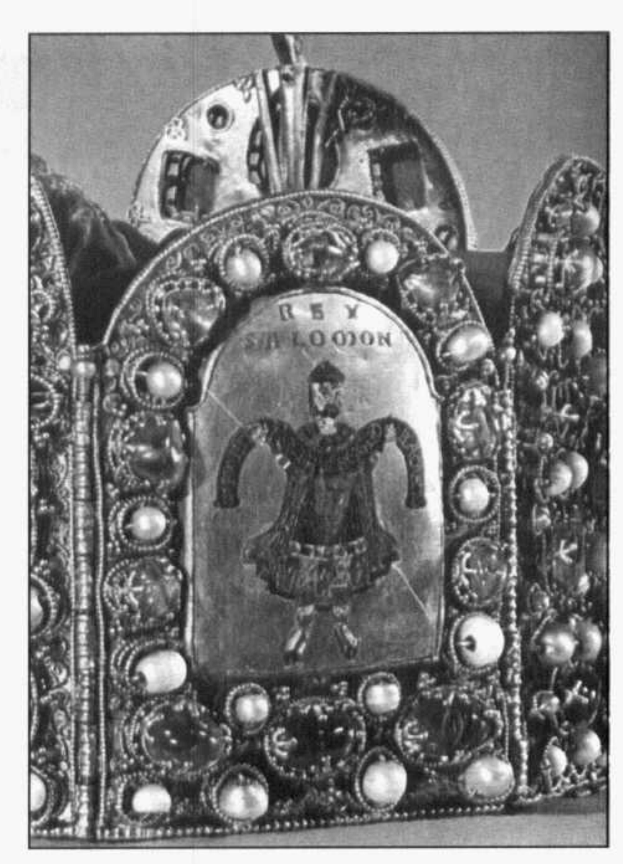


كان التتويج يتم بيد البابا فى العصور الوسطى

كذلك قام البابا بتتويج برترادا زوجة پپن وولديها كارل وكرلومان، وطلب من كبار نبلاء المملكة فى هذا الحفل المهيب أن يقسموا يمين الولاء والطاعة لبيت پپن وألا يختاروا لهم ملوكا إلا من هذا البيت. وبهذا أقرت الكنيسة الرومانية قيام ملكية «مقدسة» فى هذه

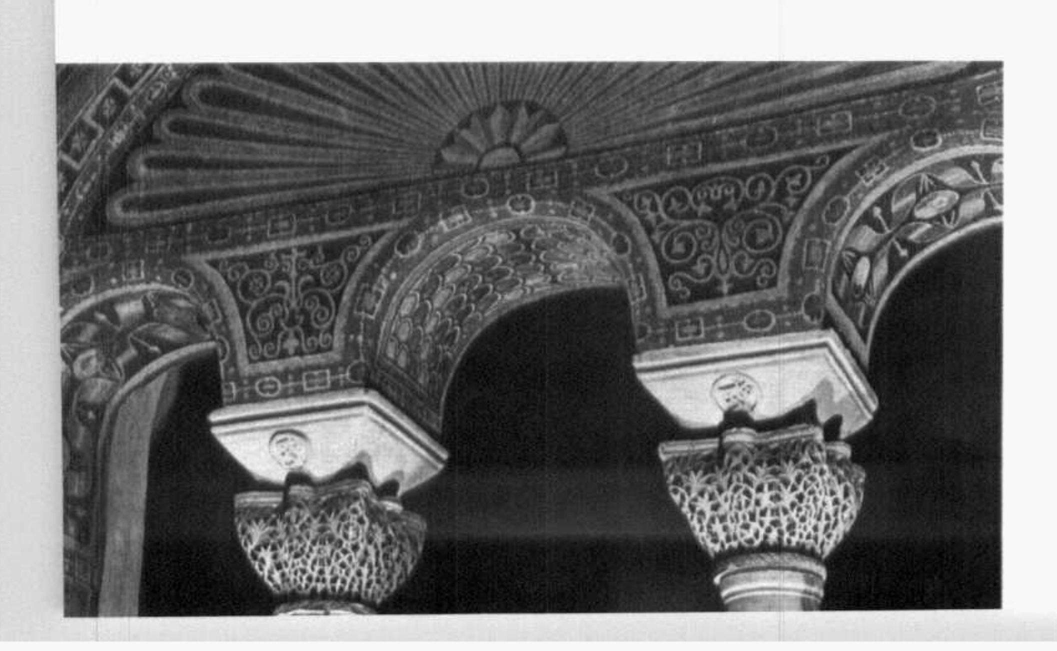


الأسـرة الفـرنجيـة الجـديدة. ولئن كـان الملك پـپن قـد جنى مـن هـذه الـزيـارة مكاسب وافـرة، فإن مكاسب البـابوية من ورائهـا كانـت بغيـر حدود؛ فـإلى جانب الحماية التى ضمنتها البابوية من جانب ملوك الفـرنجـة، أمكن للجـالس على العرش البابوى فـيما تلى من تاريخ أن يدعى لنفـسـه الحق فـى تعـيين وخلع الملوك، مـستندا فى هذا الادعـاء بحق «الحل والربط» علـى هذه السـابقـة مع ملك الفرنجة.



تاج ذهبى - العصر الكارولنجى

فى أثناء ذلك عـبـرت كـتـائب الفرنجة جبال الألب ونزلت على السهل اللومباردى، ثم أجبرت الملك استولف على التـعهد بـرد الأملاك التى كـان قد استولى عليها من البابوية، إلى جانب أداء يمين الولاء عن مملكته للملك الفرنجى.



عقود بالفسيفساء - راڤنا

ولكن استولف سرعان ما تنكر لوعوده تلك، وزحف بجيشه ليحاصر مدينة روما، فاستنجد البابا بالملك الفرنجى مرة ثانية. وعبر الجيش الفرنجى جبال الألب مرة أخرى، وأجبر استولف على رفع الحصار عن روما وإلى عقد صلح مع الملك الفرنجى والبابوية، مع دفع جزية سنوية وتقديم بعض الرهائن للملك پپن القصير. وفى أثناء المفاوضات وصل سفراء الإمبراطور الشرقى من بيزنطة يطالبون بإعادة راڤنا للإمبراطورية الشرقية. ولكن پپن صاح فى وجه السفراء البيزنطيين بأنه لم يدخل الحرب ضد اللومبارد لحساب أحد، وإنما هو قد حمل سيفه لحماية البابا الرومانى، مبينا لهم أن الإمبراطور الشرقى لا حق له فى المطالبة بأية أملاك فى إيطاليا؛ لأنه قد تقاعس عن الدفاع عن البابا ضد شوكة العدو اللومباردى من ناحية؛ ولأنه هو وشعبه قد خالفوا مبادئ الكاثوليكية من ناحية أخرى. ويحدد هذا التاريخ بداية السلطان الزمنى لبابوية العصور الوسطى والتى ساهمت مع حلفائها الفرنجة فى بعث ما قد تبقى من حطام رومانى من الأكفان.

توفى الملك پپن القصير فى ٢٤ سبتمبر ٧٦٨م، بعد أن قسَّم المملكة بين ولديه كرلومان على النصف الجنوبى، وكارل على النصف الشمالى. ولم يكن الأخوان على وفاق، ولولا تدخل الأم فى أكثر من مناسبة لاشتعلت الحرب بينهما؛ فلقد رفض كرلومان مساعدة أخيه كارل ضد كونت أقطانيا المتمرد. ولما أن تزوج كرلومان من ابنة الملك اللومباردى دزيدريوس واسمها جربرجة، سعى كارل بدوره إلى الزواج من شقيقتها ديزيدراتا حتى لا ينفرد أخوه بالحظوة فى بلاط باڤيا اللومباردى. غير أن البابا انزعج عند سماع تلك الأخبار، فكتب إلى كارل يهمس إليه أن الأميرة ديزيدراتا عقيم عاقر، محذرا إياه من مصاهرة البيت الملكى اللومباردى، ولكن كارل تزوج بالفعل من ديزيدراتا اللومباردية، غير أن همس البابا ظل يستحوذ على عقل كارل، وانتهى الأمر بطرد العروس بعد فترة زواج قصيرة إلى بلاط والدها فى باڤيا. ثم حدث أن توفى كرلومان سنة ٧٧١م فجأة، فهربت أرملته جربرجة وأطفالها إلى بلاط أبيها تشكو إليه من تحرشات كارل، ولتزيد من مشاعر البغضاء بين أبيها وبين كارل.

رفع ديزيدريوس (٧٥٦ ـ ٧٧٤م) مظلمة ابنته الأرملة جربرجة وأطفالها إلى البابا هادريان (٧٧٢ ـ ٧٩٥م) طالبا منه إجبار كارل على إعطاء أبناء أخيه المتوفى حقوقهم المشروعة فى مملكة الفرنجة. ولكن البابا لم يكترث بهذا الطلب، فقام الملك اللومباردى بشن حملة على الأراضى البابوية وزحف لضرب الحصار حول مدينة روما.

شارلمان



استنجد البابا بحليفه كارل الذى بادر بإرسال جيشه وحاصر مدينة باڤيا سنة ٧٧٣م، التى استسلمت إليه، ثم قبض على الملك وأودعه أحد الأديرة، فى حين أن ابنه أدلخيس هرب لاجئا إلى القسطنطينية ليتوفى بها بعد بضع سنين. وهكذا وضع كارل نهاية للمملكة اللومباردية وأعلن نفسه ملكا عليها، فى حين حصلت البابوية على نصيبها من الغنيمة بما فى ذلك مدينة راڤنا التى كان البيزنطيون يلحون فى استردادها.

هبة قسطنطين المزيفة

فى هذه الفترة من تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ظهرت فى الغرب اللاتينى الوثيقة الشهيرة باسم «هبة قسطنطين العظيم» (Donatio Constantini Magni)، وهى وثيقة مزيفة من الألف إلى الياء، ولا نعرف كاتبها وإن كانت فى أغلب الظن من فعل مسئول فى البلاط البابوى وربما بيد البابا نفسه. ويرجع الفضل إلى اكتشاف زيف هذه الوثيقة التى ظلت مقبولة فى غرب أوروبا على أنها وثيقة أصيلة إلى العلاّمة الإيطالى لورنتيوس ڤاللا فى القرن الخامس عشر، أى فى عصر النهضة الإيطالية.

وتروى هذه الوثيقة المدسوسة أن قسطنطين كان مصابا بمرض عضال هو مرض الجذام، وأن الأطباء وكهنة الأوثان لم يجدوا له علاجا، فأشاروا عليه بأن يجمع عددا من المواليد ليذبحوا ويغتسل الإمبراطور المريض بدمهم كى يبرأ من مرضه. وتمضى الوثيقة لتقول بأن قسطنطين أمر بإعداد عدد من الأطفال الأبرياء الرضع قسرا، رغم ولولة أمهاتهم استعدادا للمجزرة البشعة. غير أن قسطنطين أشفق على هؤلاء الصغار الأبرياء فجأة وأمر بإعادتهم إلى صدور أمهاتهم الملتاعات. وفى هذه الليلة زاره فى المنام القديس بطرس وأرشده إلى المخبأ الذى كان يتوارى فيه البابا الرومانى سلڤستر، وبشره بالشفاء من مرضه إن هو قابل البابا. ولبى قسطنطين النداء فقصد إلى مخبأ البابا سلڤستر الذى رحب بمقدمه وغسله بالماء المقدس وعافاه من مرضه الرجس. ولما أن شفى قسطنطين من دائه اللعين أراد أن يكافئ البابا على حسن صنيعه له. فقرر أن ينسحب من مدينة روما للإقامة فى عاصمة جديدة فى الشرق، وأن يترك روما وإيطاليا وولايات الغرب جميعا تحت صولجان البابا وحده. كما سمح للبابا أن يقيم فى قصر اللاتيران، وأن يتزين كالإمبراطور بالتاج والعباءة الملكية، وأن يمتطى جوادا أبيض.

إن هذه الوثيقة المزيفة ظلت أهم الركائز التى بُنيت عليها نظرية السمو البابوى روحيا وزمنيا على مدار العصور الوسطى!



نحت بارز فى باب من الذهب - العصر الكارولنجى

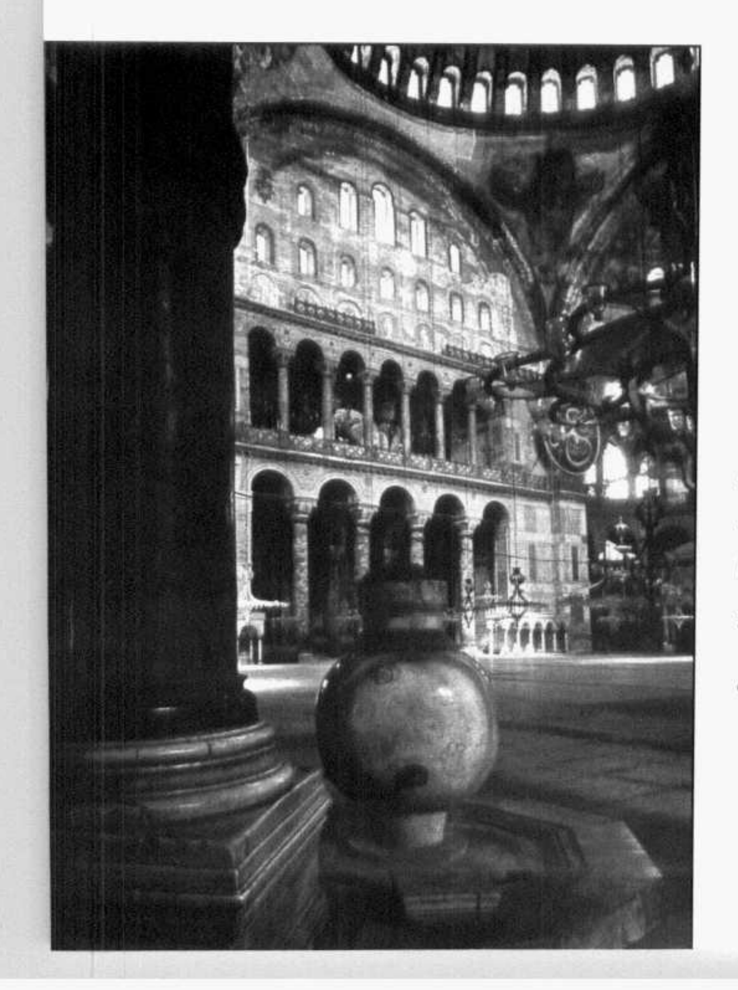
بعد أن قضى كارل على مملكة اللومبارد، اشتبك سنة ٧٧٨م مع عرب إسبانيا فى موقعة سراجوسا، ثم مع قبائل الباسك، حيث كان يعبر جبال البرانس عائدا إلى فرنسا، ثم دخل فى حرب شرسة مع السكسون والباڤار، وأجبر هذه القبائل الوثنية على الدخول فى المسيحية على المذهب الرومانى، وذلك تحت وطأة الحديد والنار. ثم أقام لهذا الغرض عدة أسقفيات فى بلدان مندن، وبادربورن، وفردان، وبرمن، وهالبرشتات، ومونستر، وهامبورج. وعندما تمرد عليه تاسيلو زعيم الباڤار سنة ٧٨٢م، قبض عليه وأودعه وذويه فى أحد الأديرة، ثم مال على بوهيميا وأخضعها لسلطانه. كما شيد كارل أسطولا استولى به على جزر سردينيا وكورسيكا والبليار. وأدخل تعديلا على الأراضى التى اقتطعها من إسبانيا تحت مسمى «المارك» وهو وحدة عسكرية إدارية يحكمها نائب عنه بلقب «مارك جراف»، ومن هذا الثغر بدأت عمليات التوسع جنوبا حتى نهر الإبرو فيما تلا من تاريخ.

وقد كان النجاح حليف كارل فى أغلب هذه الحروب، واتسعت دائرة سلطانه، الأمر الذى أعاد للأذهان ذكريات الأيام الخوالى ومجد الإمبراطورية الرومانية القديم، ومن هنا تولدت فكرة إحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب، والتى كانت قد سقطت نهائيا سنة ٤٧٦م على أيدى زعيم جرمانى آخر اسمه أودواكر. والحق أن فكرة الإمبراطورية كانت قد طمست فى مخيلة سكان الولايات بعد الغزوات الجرمانية المتكررة والتى نجح زعماء هذه الغزوات فى سلخ تلك الولايات عن الحكومة المركزية وإقامة ملكيات مستقلة عن التاج الإمبراطورى، الذى وإن كان قد سقط فى الغرب إلا أنه ظل ولو من الناحية النظرية قائما على ضفاف البسفور فى روما الجديدة أو القسطنطينية. ولكن كنيسة روما وعلى رأسها البابا قد بقيت صلبة تدلل بمراسيمها وهيبتها



أيقونة بيزنطية

وسطوتهـا على فكـرة الإمـبـراطورية الضـائعة، ولقـد أيدها فى هذا الشعـور مذهب عـقائدى واحـد وتماثـل فى الطقـوس فى شـتى أصـقـاع الغـرب اللاتينـى. كـذلك كـان للجالس علـى كرسى البـابوية اليـد الطولى فـى نشـر المـذهب الكاثولـيكى بين شـعـوب الغـرب الوثنيـة، فصارت للـبابوية هالة روحـية كبرى وصـار للبابا سمات الكـاهن الأكبر على كل كنائس الغرب. ونظرت شـعوب أوروبا إلى الـبـابا عـلى أنه والقـانون الرومانى يمثلان الرابطة التى تشد جميع بلدان الغرب اللاتينى تحت لواء واحد، خاصة بعد أن اسـتأصلت شأفة المذهب الأريوسى المخالف بين القبائل الجرمانية الغازية. وعـلى هذا باتت كنيسـة روما بمثابـة الإمبراطورية الـروحية الشـاملة، على أنـه فى نفس الـوقت لم يغـفل البابوات عـن حقيـقة أن الإمـبراطورية الدنيوية الشـرعية التى أرسى قـواعدها قسطنطين الكبـير كانت ولا تزال قـائمة فى بيـزنطة؛ ولذا فقـد كان لزامـا على



كنيسة «آيا صوفيا»
القسطنطينية من الداخل

الجالس على كرسى البابوية أن ينظر فى حـذر إلى الجالس على عرش قسطنطين العظيم، فهو الرأس الأكبر لهذا الجسد الدنيوى.

غير أن البابوات كانوا قد امتعضوا من مواقف كنيسة بيزنطة ومن أباطرتها أيضا؛ فلقـد أهين بابوات كثيـرون، ونُكِّلَ ببعضهم ونُـفوا عن كراسيـهم بسبب استبـداد إمبراطور القسطنطينيـة، كما وأن سلسلة من البدع والهـرطقات وتحطيم الأيقونات فى النصف الشرقى من الإمـبراطورية قد سببت آلاما مبـرحة للبابوية فى روما، ناهيك عن مزاعم بطريرك القسطـنطينية الذى لم يكف عن زعمه بأنه صنوٌ للبابا الرومانى. وأهم من هذا وذاك فإن صرخات البابوية المتكررة للنجدة لم تجد آذانا صاغية فى القسطنطينيـة عندما كان اللومبـارد وغيرهم من الأعداء يضـمرون الشر للبابا ويتـربصون سوءا للبابوية.

والحق أن الإمبـراطور البيزنطى كان منصـرفا إلى دفع التهـديدات التى لم تنقطع عن حدود إمبراطوريتـه الشرقية تارة مع الفرس وأخـرى مع العرب وثالثة مع السلاف والآفار، وعليه فإن الإمبراطور الشرقى بدا عـاجزا العجز كله عن أن يمد يد العون للبابوية ولرومـا فى وقت محنتها. كذلك كانت التقاليد فى النصف الشرقى للإمـبراطورية منذ عهد قسطنطين الكبير (٣٢٤ ـ ٣٣٧م) أن يضطلع حامل التـاج بمهمة حـماية العقـيدة من مخالب الهـراطقة، ومن ثم كان يرأس جـميع المجامع المسكونية الخاصة بالجدل اللاهوتى، كمـا أن بطريرك بيزنطة كان يخضع لمشورة الإمبراطور إن لم يكن لأوامره، بل وكـان من حق الإمبراطور أيضا أن يخلع من البطارقـة من يشاء وأن يرفع على عرش أيا صـوفيا من يشـاء أيضا، ولقد انزعـجت البابوية تماما بل واسـتنكرت هذا التدخل العلمانى البغيض فى شؤون كان البابا يرى دوما أنها من صميم اختصاصه هو فقط كرأس للكنيسة المسكونية غـربا وشرقا، وكصاحب الحق الأوحـد فى «الحل والربط». كذلك عندما احـتدم الجدل حول الأيقونات وأخـذ الأباطرة الأيسوريون فى بداية القرن الثامن فى تحطيـم الأيقونات على أنها أصنام وهدد هؤلاء الأباطرة بالزحف غربا لتحطيم أيقونات الكنيسـة الرومانية فى عقر دارها، فزع البابوات من هذا التـهديد، وأيقنوا أن الجالس علـى عرش قسطنطين قـد تردى فى الكفر، فكتب البابوات تباعا إلى أباطرة القسطنطينية الأيسوريين بحقيقة مشاعرهم، منذرين بأنه إن هم اقتربوا من أيقونات روما وحرماتها المقدسة، فإن شعوب الغـرب قاطبة وعلى رأسهم جماعة الفرنجة فى غالة سوف تحمل دروعها وسـيوفها للزود عن السيد البابا وعن الأيقونات المقـدسة فى بيوت العبادة فى روما.

ومن الحقائق الهامة التى ينبغى ملاحظتها فى هذا الصدد أن مراكز الفكر اللاهوتى فى القرن الثامن قـد انتقلت من الإسكندريـة وأنطاكية وبيت المقـدس إلى مراكـز جديدة فى غالة وبـريطانيا



وإسبانيا، وهكذا فإن الإلهام العقائدى الذى كان يفد من الشرق قد نضب، ولم يعد يفد - فى نظر الرومان - من المشرق إلا سلسلة من الهرطقات والتجديف والتطاول على أيقونات القديسين وآثارهم. كذلك فإن الغرب اللاتينى قد أنجب علماء لاهوتيين أمسوا يغذون الخاصة والعامة بغذاء روحى لاتينى جديد بدلا من السفسطة اليونانية العقيمة، وأصبح فى مقدور روما أن تفاخر برجالاتها من أمثال جيروم، وأمبروز، وأغسطنيوس، وجريجورى الكبير، وكولوميا، وبونيفاس وغيرهم كثيرين. كما أن عدة مراكز ثقافية قد ترعرعت فى الغرب الأوروبى وأصبحت منارات للعلوم اللاهوتية والفلسفة الأفلاطونية، ولم يعد هناك مبرر فى الغرب لتلقف ما يتساقط من على موائد الإسكندرية وأنطاكية وغيرهما من مراكز الثقافة القديمة، خاصة بعد أن انسلخت هذه المراكز عن جسد الإمبراطورية بعد الفتح العربى. وراح الرومان ينظرون فى القرن الثامن إلى مدارس باريس، وتور، وريمز، وكانتربرى، ويورك، ومينز، وكولون ليتلقوا عنها المفاهيم اللاهوتية الصحيحة بلسان يفهمونه.

من هذا السياق كله فإن البابوية أخذت تفكر جديا فى التمرد على الإمبراطور الشرقى أو «اليونانى»، وفى البحث عن بديل كاثوليكى قوى فى الغرب يشد أزرها ويبسط عليها الحماية، حتى وإن كان من دم جرمانى، شريطة أن يكون هذا البديل قد تشرب بالعقيدة الكاثوليكية وتأثر بالتقاليد الرومانية. ولقد وجدت روما ضالتها فى الجالس على عرش الفرنجة فى غالة، فى شخص كارل الحليف المخلص الذى نجاها من مخالب اللومبارد والذى نشر لواء الكاثوليكية بحد السيف بين السكسون والباڤار الوثنيين وبين العناصر السلاڤية التى سيطرت على وسط أوروبا.

هذا، وقد ظهر فى مدينة روما حزب قوى راح يفكر جديا فى إعادة الأمجاد القديمة إلى العاصمة القديمة التى كانت ذات يوم سيدة حوض البحر الأبيض المتوسط جميعا، إلا أن أعضاء هذا الحزب كانوا ساخطين على شخص البابا الجالس على العرش البابوى آنذاك ألا وهو البابا ليون الثالث؛ بسبب طبعه الاستبدادى وتسلطه على شعب روما، وبسبب بعض الشبهات التى حامت حول ثرواته المتضخمة هو وأفراد عائلته؛ ولذلك فإنه فى سنة ٧٩٨م ثار أعضاء هذا الحزب على البابا وأوقعوا به فى أحد شوارع روما وطرحوه أرضا من على ظهر جواده، ثم أوسعوه ضربا ولكما، وقيل: إنهم قطعوا جزءا من لسانه! غير أن البابا قد نجح بمعونة أحد أفراد حاشيته فى الهرب من روما إلى غالة يستصرخ حليفه كارل ملك الفرنجة لنجدته. ولقد استقبل كارل البابا الهارب فى معسكره فى بادربورن، وبادر بإعادته إلى روما مكرما تحت حماية فرقة فرنجية. وبعد قليل قدم كارل بنفسه إلى المدينة العظمى ليحسم الموقف، فعقد محكمة مثل أمام قضاتها كل من البابا ليون الثالث وخصومه، وأقسم البابا أنه برىء من الاتهامات التى وجهت إليه. وقضى العاهل

الفرنجى كارل ببراءة البابا، وأودع جميع خصومه فى السجن تحت تهديد السيوف والخناجر.

تتويج شارلمان إمبراطور رومانيا

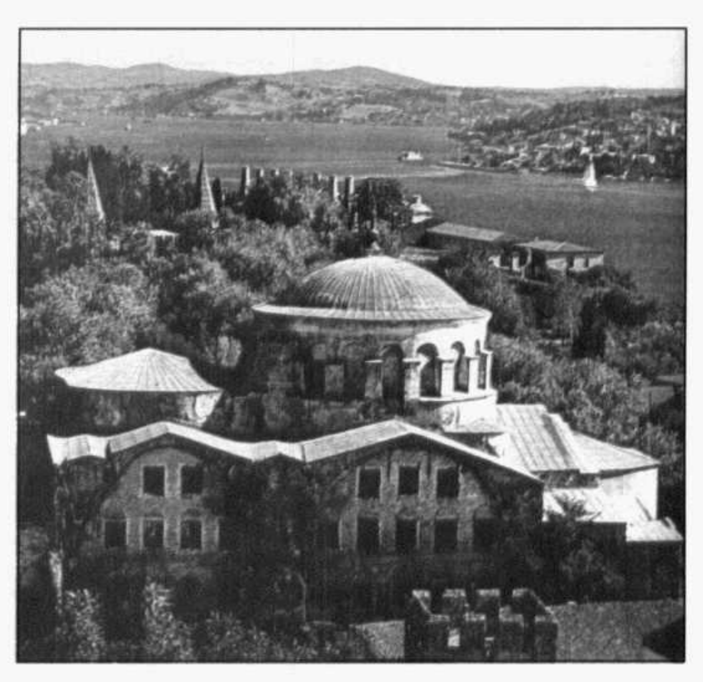
ثم حلت ليلة عيد الميلاد لسنة ٨٠٠م وامتلأت كاتدرائية القديس بطرس بالمصلين، وأيضا بعدد وافر من ضباط كارل الفرنجى المدججين بالسلاح. وبينما كان كارل يركع للصلاة إذ بالبابا ليون الثالث يطل على القوم ممسكا بتاج ذهبى ويضعه على رأس العاهل الفرنجى، ثم انحنى له وفق عادات القدامى، وسط صياح الجميع فى صوت واحد بلاتينية رصينة: «إلى كارل العظيم - الأغسطس المتوج من قبل الله - ناشر السلام - إمبراطور الرومان - له الحياة والنصر وطول العمر».!!

وهكذا أصبح كارل الفرنجى هو كارل العظيم (Karolus Magnus) أو شارلمان، وهو الذى بُعثت على يديه الإمبراطورية الرومانية من الأكفان. ورغم مزاعم إينهارد كاتب سيرة شارلمان بأن سيده قد فوجئ بالتاج الرومانى، إلا أن الدلائل جميعا تؤكد أن شارلمان كان راغبا الرغبة كلها فى أن تزدان رأسه بتاج أغسطس، فنحن نعلم أنه قبل التتويج بوقت وجيز كان قد أرسل سفراءه إلى



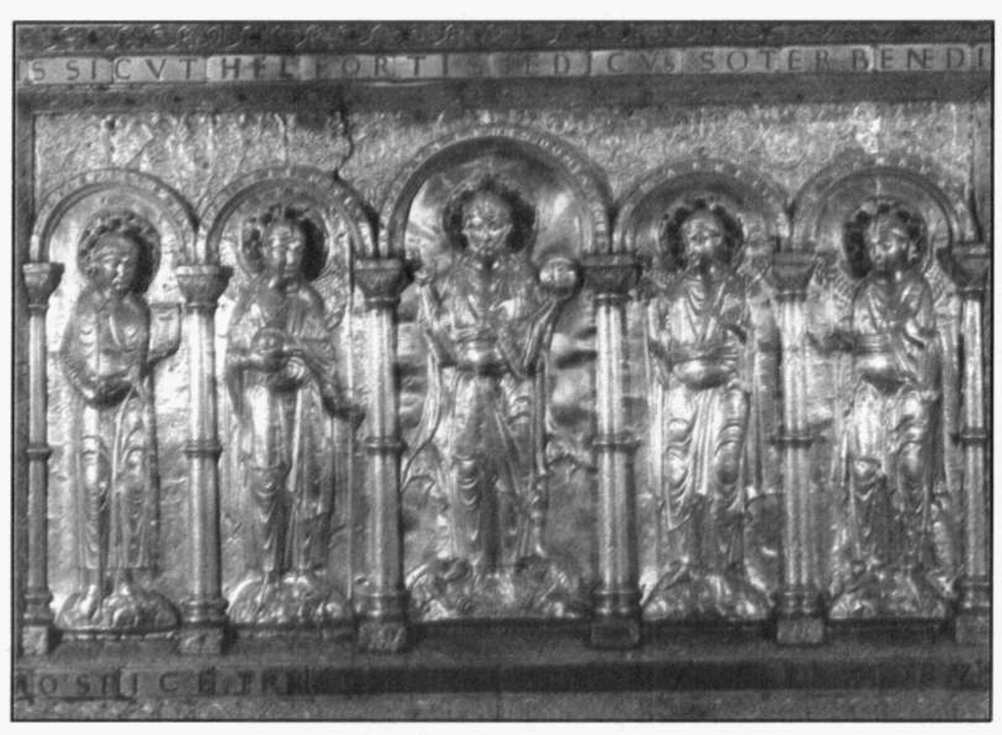
(التتويج) تصوير جدارى





كنيسة إيرينى - القسطنطينية

بلاط القسطنطينية ليطلب يد الإمبراطورة الأرملة إيرينى الجالسة على العرش وصية على ابنها القاصر فى الزواج. وليس بمستبعد أن يكون قد طرح على إيرينى مسألة الاعتراف به إمبراطورا



نحت بارز ذهبى - العصر الكارولنجى

على النصف الغربى جنبا إلى جنب معها، مثلما كانت الحال فى القديم عندما كان للإمبراطورية سيدان، واحد فى روما القديمة، وآخر فى روما الجديدة. ونجد فيما كتبه واحد من رجالات بلاط شارلمان وهو العالم الإنجليزى ألكوين (Alcuin) ما يلقى المزيد من الضوء على هذا التوجه؛ فهو يقول بأن العالم تحكمه قوى ثلاث: البابوية فى روما وهى التى تمَّ إنقاذها من الضياع بفضل همة شارلمان وحسن صنيعه؛ والإمبراطورية الشرقية فى القسطنطينية وهى التى صارت أمورها تدعو إلى الأسى والشعور بالعار؛ ثم الإمبراطورية التى بعثت من الأكفان على يد شارلمان فى الغرب وهى أفضل هذه القوى جميعا، حيث تسود العدالة وتستأصل شأفة الشرور وترفع أركان الخير والفضيلة.

هذا، وقد كانت لدى البابوية أسباب عدة للإقدام على نقل التاج الإمبراطورى من على رأس صاحبه الشرعى خليفة قسطنطين الكبير إلى رأس زعيم فرنجى ينتمى إلى جموع المتبربرين. وفى مقدمة هذه الأسباب حقيقة أن حامل التاج الشرعى فى القسطنطينية آنذاك كان صبيا قاصرا عاجزا فقد بصره على يد والدته إيرينى التى سملت عينيه لكى تزيحه عن العرش وتجلس هى بدلا منه بمفردها، وهذه سابقة شاذة فى التاريخ الرومانى؛ لأن الناس لم يألفوا أن يروا امرأة ترتدى عباءة أرجوانية. والأدهى من هذا أنها حملت لقب «بازيليوس» أى «صاحب الجلالة» وليس لقب «بازيليسا» أى «صاحبة الجلالة». كذلك لم تكن الكنيسة الرومانية على استعداد لأن تغفر لإيرينى جريمتها النكراء ضد ابنها القاصر، ومن ثم فإن إيرينى بفعلتها البشعة التى استاء منها البيزنطيون أشد الاستياء تكون قد سهلت على كل من البابا وحليفه شارلمان إيجاد الذريعة لإتمام هذه الدراما فى كاتدرائية القديس بطرس فى روما. ومع أن إيرينى كانت قد أعادت عبادة الأيقونات فى مجمع نيقيا المسكونى السابع سنة ٧٨٧م، إلا أن الأسرة التى كانت تنتمى إليها وهى الأسرة الأيسورية كانت قد لطخت سيرة الأسرة برمتها بوصمة الهرطقة والتطاول على المقدسات والآثار الكنسية القديمة، وذلك بطبيعة الحال من وجهة نظر الغرب اللاتينى.

كذلك كان البابا ليون الثالث مدركا لحقيقة أن الجالس على عرش القسطنطينية، حتى يوم أن كان رجلا وليس امرأة، كان عاجزا كل العجز عن تقديم الحماية للبابوية ضد مخالب العدو اللومباردى فى شمال إيطاليا، بل إن وقتا قد جاء حينما عقدت بيزنطة وركيزتها إكزارخية راڤنا فى إيطاليا حلفا مع العدو اللومباردى ضد البابوية ذاتها. وكانت الحجة القوية لدى الحزب البابوى أنه طالما أن الإمبراطور الشرقى عاجز عن الدفاع عن رعاياه فى روما، فإنه من حق هؤلاء الرعايا أن ينقلوا ولاءهم لمن يستطيع بسط الحماية عليهم. ولم يكن هنالك على الساحة من يستطيع القيام بهذا الدور سوى شارلمان الزعيم الفرنجى المرموق. وعلى ثقل هذه الحجج والأسانيد أقدم البابا ليون



الثالث فى جرأة نادرة هو وكـرادلته على التفرقـة بين الخيال النظرى (De Jure) وبين الواقع العملى (De Facto)، فقرروا تتويج شارلمان إمبراطورا للرومان.

يضاف إلى هذا أن الشعـور المتحفز فى روما القديمة كـان شعورا لا يخلو من الغيرة من تلك المدينة الواقـعة على البسفور والمسمـاة بروما الجديدة والتى لم تكن فى نظر الرومان أكـثر من مدينة مـحدثة النعمـة. كذلك لم يغفـر البابوات لبيزنطة أطمـاعها فى منازعة روما فى حـقوق الإمارة على الكنيسة العـالمية غربا وشـرقا، تلك الأطمـاع التى وضحت فى جـلسات المجـامع المسكونية السـبعـة المتتـابعة. لقـد كان لروما دومـا الحق فى انتخـاب الإمبراطـور وتتويجه، فـهى العاصـمة الأولى للإمبراطوريـة دون نزاع، فكيف تستحل بيزنطة لنفـسها اغتـصاب هذه الحقوق التليـدة؟ لقد حان الوقت لروما كى تسترد حقوقها المغتـصبة، ولـم يكن هناك سبيل لتحقيق ذلك إلا بأن تنفض روما عن كاهلهـا ذاك العبء البيـزنطى «المتأغرق» الكريه، وذلك بأن تلـتمس لنفسـها إمبـراطورا قويا يجاورها جغرافيا ويؤازرها فى الغرب اللاتينى. كـما وأن البابا قد رأى بنفسه أن شارلمان هو رجل البابا الأول فى الـغرب الأوروبى، وهو الذى نشر العـقيـدة الكاثوليكية بحد الـسيف، وهو الذى حفظ للبابوية كرامتها وحقوقها الدنيوية مثلما فعل والده پپن القصير وجده كارل مارتل من قبله.

يضاف إلى هذا أن البـابوية كانت ترغب فى مقاومة توجـهات الحزب الجمـهورى فى روما الذى كان يسعى لإقامة «قوميون» (Commune) فى المدينة يتحرش بالمصالح البابوية، ولكى تؤمن البابوية نفسها تماما كان لا بد من إيجاد حلـيف قوى يرهب هذ الحزب الجديد. وليس بمستبعد أن يكون البابا ليون الثالث قد تدارس الموقف من كل جوانبـه مع مستشارى شارلمان أثناء وجودهم فى روما، وأيضا مع بعض مـواطنى المدينة من جماعة السيناتوريـين وبعض الأسر النبيلة، ذلك أنه لا يمكننا أن نتصور إقدام ليون الثالث على هذا العمل الخطير (التتويج) دون أن يكون قد ضمن تأييدا كافيا لمشروعه من جانب أغلبية من شعب روما.

أرسل شـارلمان سفراءه إلـى البلاط البـيزنطى ليـبلغوا السلطات هناك أن سـيدهم قـد توج إمبراطورا للرومان، وكان القصد من هذه السفارة الوقوف على ردود الفعل فى القسطنطينية. ولقد أبدت إيرينى غضبا شديدا من فـعلة البابا وحليفه «المتبربر» شارلمان، واعتـبروا ذلك اغتصابا للقب والتاج؛ إذ إن الإمبراطورية كانت قائمة بعاصمتها وجيوشها ومجلس شيوخها وكامل أجهزتها على ضفاف البسفور. واتهم البـيزنطيون البابا ليون الثالث بأنه كاهن آثم قد تآمر ضـد الحقوق الشرعية لخلفاء قـسطنطين العظيم. كذلك قـام الأسطول البيزنطى بمهـاجمة الـشواطئ الإيطالية لتـخويف شارلمان، ونشطت الأحزاب الموالية لبيزنطة فى إيطاليا خـاصة فى مدينة البندقية، كما تلقى شارلمان إهانات بالغة فى رسائل مرسلة من الجالس على عـرش القسطنطينية. ولكن شارلمان لم يكن بحال

ليتخلى عن اللقب والتاج. وأخيرا، فى سنة ٨١٢م عقد الإمبراطور البيزنطى الجديد ميخائيل رانجابيه صلحا مع شارلمان واعترف به إمبراطورا على الغرب.

بعد أن اعترفت بيزنطة بشارلمان إمبراطورا لم يفكر فى اتخاذ خطوات عدائية ضدها، ولكن أهل روما لم يشعروا بالارتياح لهذا الموقف الودى؛ ذلك أن البابا وأتباعه قد ظنوا أنهم بهذا التتويج قد أنفذوا انقلابا خطيرا، وبأنهم قد خلعوا الإمبراطور البيزنطى نهائيا، وأعادوا السيادة الإمبراطورية غربا وشرقا إلى إمبراطور واحد فى الغرب اللاتينى؛ ولذا فإن قوائم الأباطرة فى سجلات روما تسجل اسم شارلمان خلفا مباشرا للإمبراطور البيزنطى قسطنطين السادس (الذى خلعته أمه إيرينى عن العرش بعد أن سملت عينيه)، وتضفى هذه السجلات على شخص شارلمان نفس الشرعية التى كان يتمتع بها أغسطس وقسطنطين العظيم، وكان البابا يعتقد اعتقادا راسخا أن شارلمان هو أصلح الأمراء فى الغرب لحمل التاج الرومانى، ولم يكن هنالك فى الغرب من هو أهم من رأس الكنيسة الرومانية ليقنع الناس بهذا التغيير فى نقل التاج.

لقد أبرز ليون الثالث تاجا ووضعه فى حفل مهيب على رأس الزعيم الفرنجى، ولم يكن من حق البابا أن يقتنى تاجا ولا أن ينعم به على أحد. ونحن لا نعلم من أين حصل البابا ليون على التاج أصلا. على أنه ينبغى القول بأن ليون الثالث قد استند فى فعلته على موقعه كجالس على عرش الكاهن الأكبر، وعلى الهالة التى كانت تحيطه بمدينة روما، وأيضا على الشعور السائد فى الغرب اللاتينى آنذاك. ولولا أن البابا كان مطمئنا إلى أن ما سيقوم به سوف يقابل بالارتياح فى الغرب لما أقدم عليه.

كان هذا موقف الحزب البابوى، أما الحزب الإمبراطورى، فقد جاهروا صراحة بأن سيدهم شارلمان قد اكتسب التاج الرومانى بحد السيف، ومن ثمَّ فهو ليس مدينا لأحد بهذا التاج؛ لأنه جائزة كفاحه. والحق أن هذا التفسير هو أوقع التفسيرات وأقربها إلى منطق الواقع، فلولا الفتوحات الضخمة التى حققها



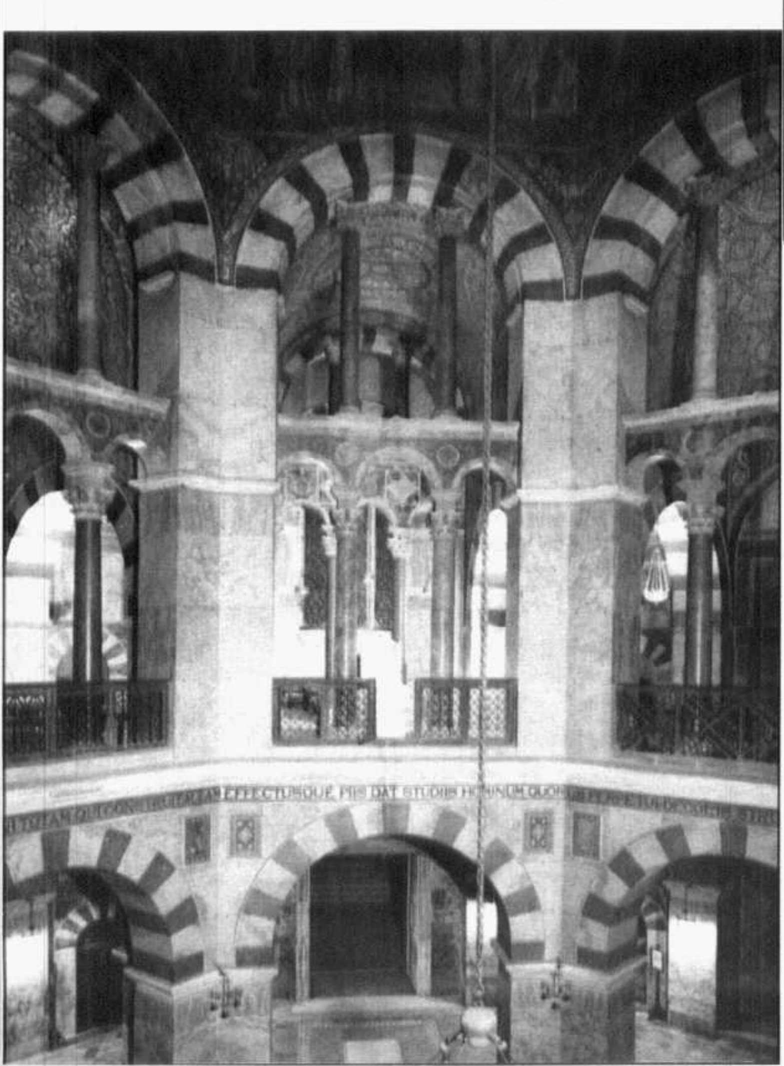
شارلمان

شارلمان بحد السيف، لما فكر فيه أحد كإمبراطور.

على هذه الشاكلة أعيد إحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب اللاتينى بعد أكثر من ثلاثة قرون ونصف من سقوطها على أيدى الجرمان، ولقد أحدث تتويج شارلمان تغيرات خطيرة فى خريطة أوروبا، ومن أبرز هذه التغيرات الصراع الذى اندلع بين خلفاء شارلمان بين الأباطرة وبين البابوية، إذ برز على المسرح السؤال الخطير؛ أيهما أسمى مقاما: هذا الذى يمنح التاج أم ذاك الذى يتلقى التاج؟ وأى السلطتين هى الأسمى: السلطة



يد القدرة – العصر الكارولنجى



كنيسة آخن

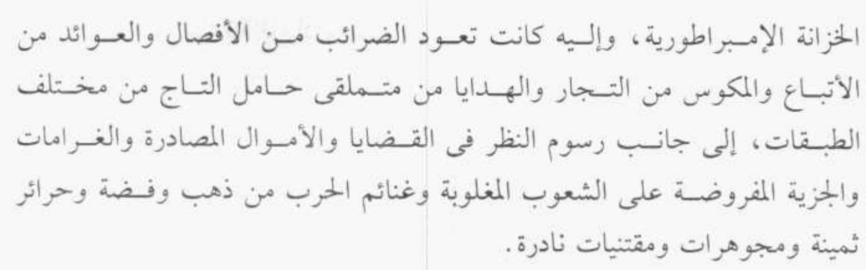


الدنيوية (Regales) التى يمثلها الإمبراطور، أم السلطة الروحية (Sacerdos) التى يمثلها البابا؟ كذلك كان من نتائج التتويج أن ضُمت إيطاليا وألمانيا فى إطار إمبراطورى واحد، الأمر الذى جرَّ الخراب على كل من الإيطاليين والألمان جميعا، فقد ظلت إيطاليا عبئا على كواهل الأباطرة الألمان سبعمائة عام تقريبا، كما هلك من الدسائس وبعوضة الملاريا الإيطالية عدد وافر من الأباطرة الألمان. كما أن سلسلة من البابوات قد هلكوا أيضا فى زخم هذا الصراع. ويقال: إن بعض الأباطرة الألمان قد ماتوا بالسم الذى دسه لهم الإيطاليون المتمردون ليتخلصوا منهم.

أما ألمانيا فبدلا من أن تتجه إلى تأمين رقعة أراضيها على الجبهة الشرقية، فإنها أرهقت مالها ورجالها فى حملات مضنية عبر جبال الألب لترويض هذا «النتوء» السياسى فى شبه الجزيرة الإيطالية، وفى مملكة صقلية وفى الجنوب الإيطالى. ولكم أضاع الأباطرة الألمان زهرة شبابهم وهم يلهثون من سكسونيا أو باڤاريا إلى روما أو كانوسا أو كلابريا أو پالرمو على حساب مصالح وهيبة التاج الألمانى، الأمر الذى جعل الإقطاع يعمق جذوره فى تربة الألمان تحت إمرة الأدواق الأربعة فى سكسونيا وباڤاريا وسوابيا وفرنكونيا. ولا نبالغ إن قلنا أن إحياء الإمبراطورية الرومانية على يد شارلمان سنة ٨٠٠م قد جعل الاتحاد الألمانى والوحدة الإيطالية حلما بعيد المنال لم يتحقق حتى حلول أواخر القرن التاسع عشر.

استحدث شارلمان بعض النظم التى تليق بخليفة الأباطرة الرومان، فأصدر مراسيم عامة طبقها على كل رعاياه دون تفرقة، وكلف مبعوثيه (Missi Dominici) الخاصين بمراقبة تنفيذ هذه المراسيم ومعاقبة من يسيء استخدامها من الكونتات والأفصال. كذلك عقد المجالس التى كانت تضم كبار رجال الدين ونفرا من وجهاء العلمانيين لتنظيم شئون الكنيسة. وكان على المبعوثين أن يوافوا الإمبراطور بتقارير مفصلة عن تنفيذ أوامره وتوجيهاته. ولم يكتف شارلمان بإصدار القوانين بل اضطلع أيضا بمهمة القاضى الأكبر فى الإمبراطورية، وأعطى لنفسه الحق فى الفصل فى أية قضية، وكان حكمه فيها نهائيا، هذا، إلى جانب حقه فى النظر فى قضايا الجرائم الكبرى، كما كان من حق المتخاصمين من علية القوم استئناف النظر فى قضاياهم أمام محكمته، سواء أكانت هذه القضايا مدنية أم كنسية.

تركزت حكومة شارلمان لإمبراطوريته الواسعة فى بلاط قصره (Palatium) فى عاصمته إكس ـ لا ـ شاپل (آخن). وكانت سياسة الإمبراطورية تُرسم فى هذا القصر بواسطة شارلمان نفسه مستعينا بمجلس خاص يتكون من خلصائه ومستشاريه. كذلك كان القصر بيتا للمال، ففيه توجد



الخزانة الإمبراطورية، وإليه كانت تعود الضرائب من الأفصال والعوائد من الأتباع والمكوس من التجار والهدايا من متملقى حامل التاج من مختلف الطبقات، إلى جانب رسوم النظر فى القضايا والأموال المصادرة والغرامات والجزية المفروضة على الشعوب المغلوبة وغنائم الحرب من ذهب وفضة وحرائر ثمينة ومجوهرات ومقتنيات نادرة.

وكانت نفقات القصر ومصروفات إقامة الحفلات واستقبال الضيوف والسفراء تدبر من دخول الضياع الإمبراطورية المنتشرة فى سائر أرجاء الإمبراطورية. ولقد ورث شارلمان هذه الضياع من الملوك الميروڤنجيين، ومع أنه وهب بعض هذه الأراضى للكنائس والأديرة، إلا أن هباته كانت ضئيلة إن هى قيست بالهبات التى أنعم بها الملوك الميروڤنجيين على بيوت العبادة والأديرة من قبل.

كذلك كانت هذه الضياع تمد القصر الإمبراطورى بالغلال والثيران والخنازير والأنبذة والجعة وزيت الزيتون والأسماك إلى جانب الخيول لإسطبلاته الكبيرة. وقد جلبت فتوحات شارلمان إليه ضياعا أخرى كثيرة فى لمبارديا وسكسونيا وباڤاريا، وقد أقطع الإمبراطور هذه الأراضى الجديدة لأفصاله المقربين ولكبار موظفى بلاطه.

وكان شارلمان محبا للبناء والمعمار، فشيد كنائس كبيرة أشهرها فى آخن وهى التى دفن فيها، كما شيد قصرا رائعا فى عاصمته وآخر فى مدينة إنجلهايم، وثالثا فى مدينة نجميجن، كما أقام قنطرة على نهر الراين عند مدينة مينز. وكان مهندسو شارلمان من الإيطاليين المهرة الذين أبقوا فى العمارة على أسلوب المدرسة البيزنطية بطرزها الجميلة من الفسيفساء.

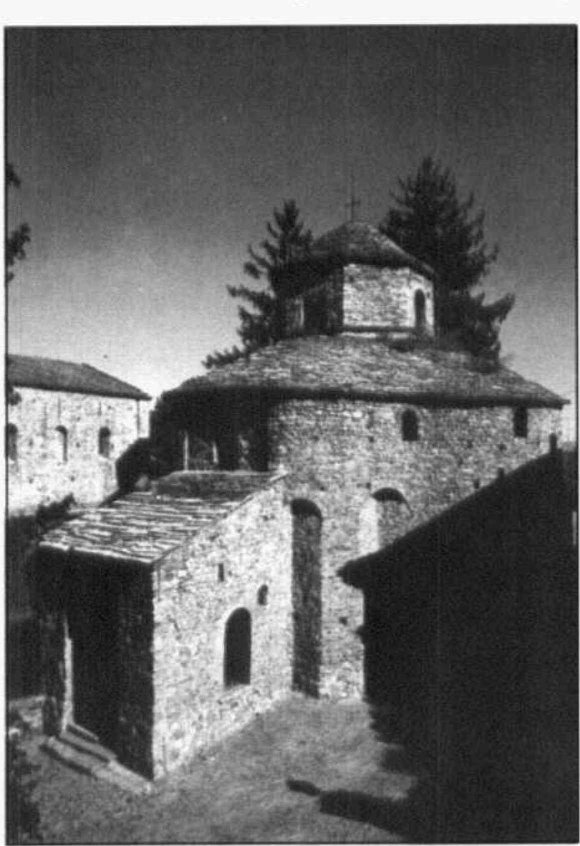
النهضة الكارولنجية

ولعل أهم جهود شارلمان تتمثل فى برنامجه الطموح من أجل إحياء الحياة الأدبية والتعليمية، وهذا ما يطلق عليه عادة اسم «النهضة الكارولنجية»، فلقد استقدم شارلمان إلى بلاطه نفرا من مشاهير العلماء من مختلف البلدان الأوروبية وهم الذين ساهموا فى إقامة «مدرسة القصر» (Scola Palatina).

ولقد اتخذ كل من هؤلاء لنفسه اسما كلاسيكيا شمل فيما شمل اسم هومر نفسه. ولقد اهتم الشعراء فى مدرسة القصر بالشعر اللاتينى الكلاسيكى، بينما اهتم آخرون بالنثر والخطابة، واشتغل فريق ثالث بالتاريخ والأساطير. ومن بين الأساتذة الذين استعان بهم شارلمان فى نهضته: ألكوين الإنجليزى الذى كان شاعرا متأثرا بأشعار فورتيناتوس، ولهذا الإنجليزى النابه عدة قصائد بعضها يتناول أحداثا تاريخية قديمة وبعضها عن سير القديسين، بينما يعالج البعض الآخر تاريخ

بعض المدن مثل مـدينة يورك ومدينة لندرڤان. ومن أشهر قـصائد ألكوين تلك المساجلة بين الشـتاء والربيع، وهى من النمط الشائع آنئـذ فى الأوساط الثقافـية الأنجلو - سكسـونيـة.

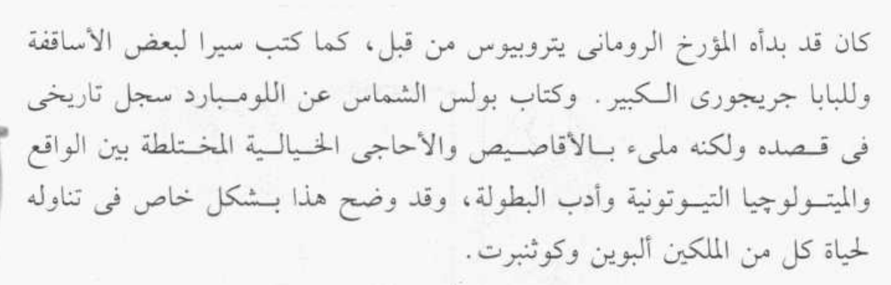
ولألكـوين أيـضـا مجـموعـة ضخـمة من الرسائل النثرية التى تميل إلى الأسلوب الخطابى، ومن بينها رسالة إلى صـديقه أرنو أسقف ستراسبورج تخلو من التكلفة والصنعة.



كنيسة كارولنجية

ومن أعـلام هذه النهـضـة أيضـا ثيـودلفـوس أسقف مـدينة أورليـان وهو قوطى الأصل، وكان بمثـابة الشاعر الأول فى البـلاط، وقـد تميـز أسـلوبه بالوقـار والشجاعة وقـولة الحق. ونجده فى إحدى قصائده المطولة يقدم النصح لقضاة الفرنجة وينهـاهم عن الرشـوة من ذهب مغـربى وجلد قوطى وكئوس فضية مزينة. ويذكر أن هذا الشاعر قد تعرض فى شـيخوخته لاضطهـاد من قـبل لويس التـقى ابن شارلمان الذى ألقى به فى السـجن واتهمه بالخيانة. ومن وراء القضبـان راح الرجل الكهل يتذكر الشاعر أوڤيد وينهل من أفكاره، فصوَّر لنا ربة الحكمة وهى تتـبنى قضيته وتدافع عنه وتطـلب براءته. وقد تميز هذا الشاعر الشـجاع بالنزاهة وحب الحق، فهاجـم نفاق رجال القصر ورذيلـة التملق التى كانت متـفشية فى البـلاط، كما أنه استـخف بالألقاب التى خلعهـا الأساتذة على أنفسـهم وعلى سيدهم الإمـبراطور، فلقد أسـموا شارلمان باسم «داود» وآخر باسم «هومر»... إلخ.

ومن أعلام المدرسة أيضا مؤرخ لومباردى اسـمه بولس الشماس الذى كان قد أمضى بعض الوقت فى دير مـونت كاسينـو فى إيطاليا بعـد سقوط مملكة الـلومبارد فى أيدى شـارلمان، ولكن شارلمان دعاه للإقامة فى بلاطه ليفيد من علمـه وقلمه. وفى أواخر سنى حياته عاد بولس الشماس إلى حياة الديرانية، حيث سجل «تاريخا للومبـارد» إلى جانب حولية «للتاريخ العام» أكمل بها ما

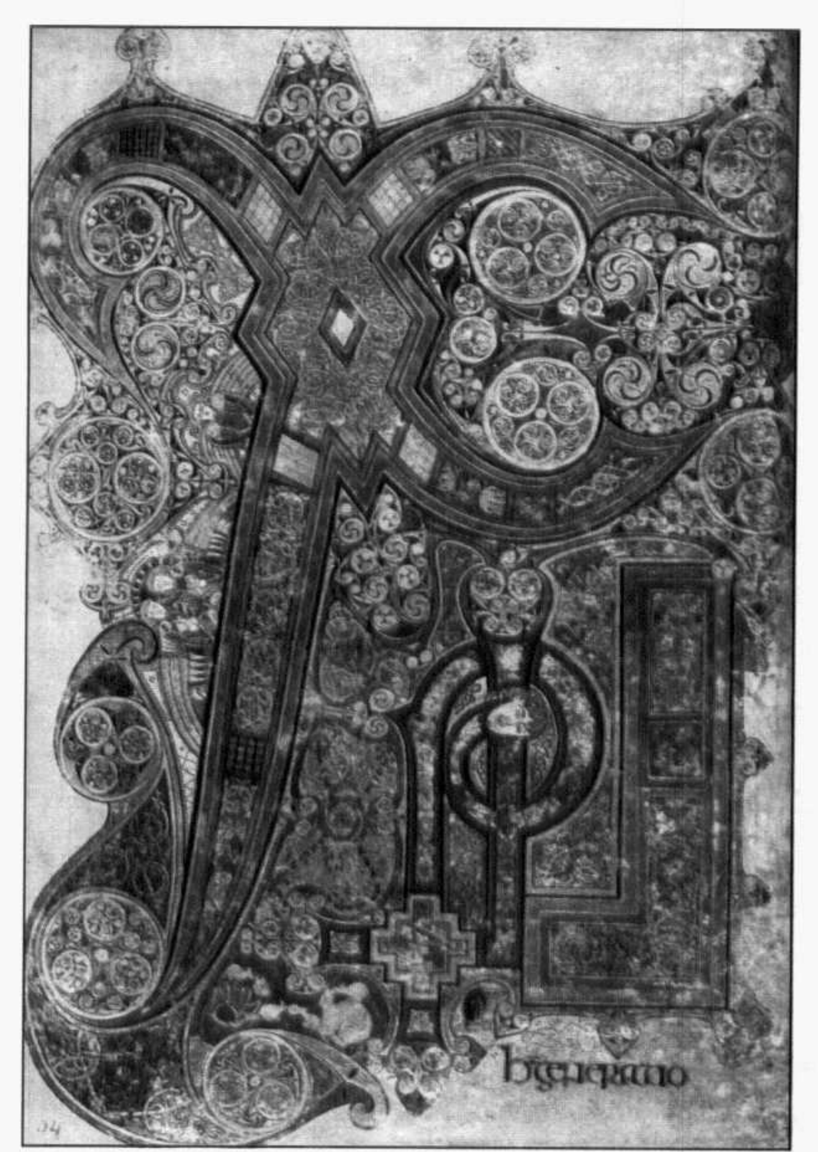


كان قد بدأه المؤرخ الرومانى يتروبيوس من قبل، كما كتب سيرا لبعض الأساقفة وللبابا جريجورى الكبير. وكتاب بولس الشماس عن اللومبارد سجل تاريخى فى قصده ولكنه ملىء بالأقاصيص والأحاجى الخيالية المختلطة بين الواقع والميتولوچيا التيوتونية وأدب البطولة، وقد وضح هذا بشكل خاص فى تناوله لحياة كل من الملكين ألبوين وكوثنبرت.

أما أشهر مؤرخى عصر شارلمان على الإطلاق فهو إينهارد صاحب «سيرة شارل العظيم» (Vita Caroli Magni). وبمقارنة مؤلف إينهارد هذا بما ورد فى تاريخ بولس اللومباردى نتبين الفرق الشاسع بين شطحات الخيال عند الشماس وبين التأمل الواعى عند إينهارد، تماما كما نلمس نفس الفرق بين خيال هيرودوت فى «تواريخه» وبين دقة ثيكوديديس فى «حرب البلوبينيز» مثلا. لقد وضع إينهارد نصب عينيه وحدة محددة ذات نسب وأبعاد كان مدركا لمداها، ومن هذا المنطلق أخذ يسجل أحداثا تاريخية، مقدرا أهمية الخط العلمى عند كتابة التاريخ. والحق أن الرجل كان قد أفاد الكثير من طرائق القدامى وقواعدهم فى التأليف قبل أن يمسك بقلمه ويخط سيرة شارلمان، فهو لا يقتبس عن القصص الخرافية والمغامرات فى حياة بطله، على الرغم من إعجابه الشديد بشخص شارلمان وإعجاب شارلمان نفسه بهذا النمط من القصص البطولى، بقدر سعيه نحو رسم صورة موضوعية صادقة لعصره ولرجالات العصر، مسترشدا فى منهجه بكتابات ثيوتونيوس. وإينهارد من أصل فرنجى من بلدة «مين»، وقد تلقى تعليمه فى دير «فولدا»، ثم أرسله مقدم الدير هدية إلى بلاط شارلمان فلقى من الأخير كل الترحيب والإعجاب. والقارئ لكتابات إينهارد يلاحظ أن الرجل لم يلتقط من التراث الأسطورى التيوتونى والحكايات المتبربرة (Barbara et antiquissima Carmina) إلا ما يعينه على تفهم سمات البطل وسلوكياته فى واقعة بعينها، خاصة فى مهمة القتال ومواقف البطولة. وإينهارد بعد هذا ينفر بطبعه من أدب الملاحم والأناشيد، فهو مثلا عندما يعرض لمعركة جبال البرانس بين مؤخرة جيش شارلمان وقبائل الباسك والتى سقط فيها البطل الفرنجى رولان ورفاقه: إيجهارد ساقى الملك، وأنثلم كونت البلاط وغيرهم، فإنه يكتفى بتسجيل الأحداث فى وقار وصدق المؤرخ ووضوح الرؤية، وقد حرر ذهنه من انفعالات وخيالات العصور الوسطى.

إن هذه المدرسة الكارولنجية بعمدها من جنسيات أوروبية متنوعة كانت بمثابة الشعلة التى بددت بعضا من ظلام العصور الوسطى، وكانت تعتمد أساسا على بعث التراث الرومانى القديم من الأكفان. ومن الأشياء الأخرى التى أولاها شارلمان كبير الاهتمام تلك الضحالة الثقافية لدى رجال الدين فى القرن الثامن، وأغلاطهم الفاحشة فى النحو والصرف والأسلوبية. ويتضح ذلك من واقع

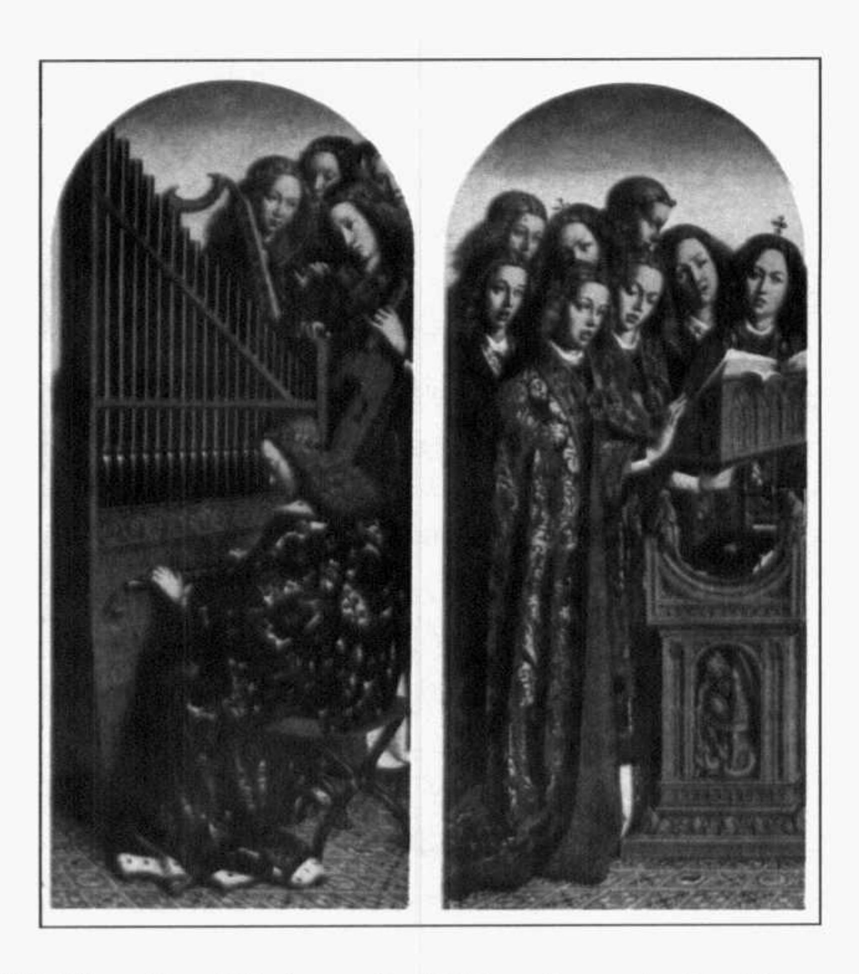




مخطوط من العصر
الكارولنجى

الرسائل التى كتبـها بعض هؤلاء إلى البلاط الإمبراطورى، والمعروف أن شارلمان نفـسه كان أميا لا يجيد الكتابة؛ ولذا فـإنه كان يجلس فى قاعة الدرس فى القصر مع أبنائه وبناته يتـعلم قواعد اللغة اللاتينية الصحـيحة فى صبر زائـد. ولكى يعالج النقص المعيب فى رجال الدين فى مـجال اللسان القويم فـإنه أمر بأن تعد عدة مـواعظ سليمة الأسلوب والآجـرومية وتوزع على كهنة الأبروشـيات ليستفيدوا منها فى مـواعظهم. كذلك أنشأ العديد من المدارس الكاتدرائية فى كل من ريمز وأورليان إلى جانب عدد آخر من المدارس فى البيوتات الديـرانية فى سانت جال، وتور، وريشينو، وفولدا،





آلة الأرغون

وهرزفيلد، وكورفى، وهرشو. وكان الهـدف من هذه المدارس تخريج الكهنة المتعلمين، إلى جانب تثقيف نفر من العلمانيين أيضا. وكـانت الدراسة فى هذه المدارس تنصب على قواعد اللغة اللاتينية فى صيـغتها المبـسطة الدارجة (Vulgata)، إلى جانب دراسـة أعمال الفطاحل القدامى من أمـثال ڤرجيل، وهوراس، وأوڤيد، وسالوست، وجوڤنال، وسنيكا.

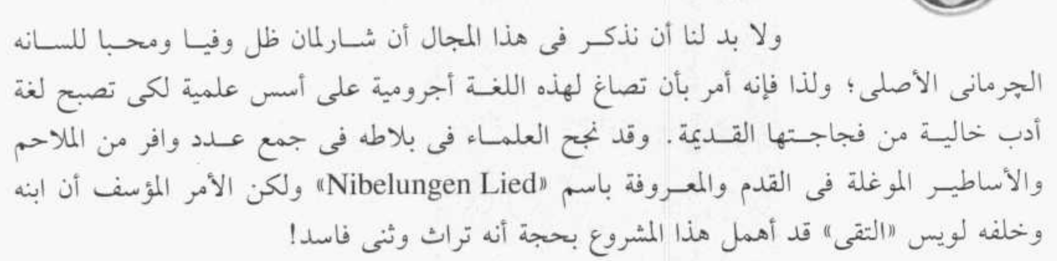
كذلك كان شارلمان مهتما بالموسيقى والألحان الكنسية، فطلب من البابا أن يرسل له بنفر من المتخصصين فى الألحان الدينية، وأسس لهذا الغرض مدرستين للموسيقى واحدة فى متز، وأخرى فى سواسون، وقد أدخل الإيطاليون آلة الأرغون إلى غالة فى عـصر شارلمان، الذى كان شخصيا شديد الشغف بأنغام هذه الآلة العجيبة.

لقد أتت هذه الجـهود أكلها وكـان من أهم نتائج هذه النهـضة الكارولنجـية تنقيـة اللسان اللاتينى المستخدم من شـوائب السوقية والتبربر، وإن كانت هذه الخطوة قـد وسعت الهوة بين لغة الكتابة ولغة التـخاطب؛ ولذا فإن هذه الأخيرة قـد تطورت فيما بعد إلى لهـجات شعبيـة محلية

ودارجة هى النواة الباكرة للفـرنسية واللغات «الرومانيسك» الأخـرى من إسبانية وإيطالية وغيرها.

على أن الاهتمام الزائد باللاتينية الكلاسيكية قد ساهم فى حفظ عدد بالغ من المخطوطات لكتابات القـدامى، ولولا هذا لضاع هذا التراث القـديم. كذلك كان لشارلمان الفضل فى أن يحدد للعـصور الوسطى على مدارها اللسان اللاتينى كأداة للتعليم فى مختلف المدارس والجامعات الأوروبية.

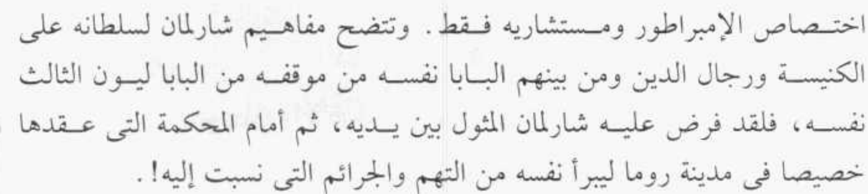
ولا بد لنا أن نذكـر فى هذا المجال أن شـارلمان ظل وفيـا ومحـبا للسـانه الجرمانى الأصلى؛ ولذا فإنه أمر بأن تصاغ لهذه اللغـة أجرومية على أسس علمية لكى تصبح لغة أدب خاليـة من فجاجـتها القـديمة. وقد نجح العلمـاء فى بلاطه فى جمع عـدد وافر من الملاحم والأساطيـر الموغلة فى القدم والمعـروفة باسم «Nibelungen Lied» ولكن الأمر المؤسف أن ابنه وخلفه لويس «التقى» قد أهمل هذا المشروع بحجة أنه تراث وثنى فاسد!



اعتبر شارلمان نفسه سيدا على الكنيسـة بحكم منصبه كإمبراطور متوج، فهو الذى دافع عن الكنيسـة الرومانية ضد أعـدائها اللومبارد، وهو الذى نشـر الكاثوليكية بحد السيف بين مـختلف القبـائل الوثنية، وهو بعد هذا «المخـتار» من قبل السمـاء والممسوح بالزيت المقـدس بواسطة البابا الرومانى نفسه؛ ولذلك فـقد أعطى لنفسه الحق فى اختيـار الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وكـثيرا ما كان يُعينهم دون انتخاب. كذلك كان يمارس حقه فى عقد المجامع الدينية ورياستها وتوقيع قراراتها لتصبح نافذة المفعول. وكانت الكنيسة ورجالاتها يخـضعون جميعا لقوانين الإمبراطورية شأنهم فى هذا شأن العلمانيين من الرعية.

وشارلمان بعـد هذا هو أول من فرض ضريبة العـشور وجعلهـا إجبارية تدفع للكنيسـة، وقد تلقف رجال الدين هذا القرار وزعـموا أنه نص ملزم فى الكتاب المقدس، وراحوا يطبـقونه فى سائر بلدان غرب أوروبا. ولم يكتف شارلمان بهذه السلطات الواسعـة على الكنيسة بل طالب بحقه أيضا فى رسم السياسة العامة وفى اعتماد الطقوس والعقائد. ويتضح هذا من موقفه من المجمع المسكونى السابع الذى كانت الإمبراطورة إيرينى البيزنطية قـد عقدته سنة ٧٨٧م لإعادة عبادة الأيقونات، فقد أرسلت إيرينى قـرارات هذا المجمع إلى البابا هادريان (٧٧٢ ـ ٧٩٥م) الذى وافـق عليها وسُـرَّ بها سرورا بالغا، ثم أرسلها بدوره إلى شارلمان لكى يذيعهـا على رجال الدين فى غالة، غير أن شارلمان لم يقتنع بكل ما ورد فى هذه القـرارات، فجمع مجلسا من الأساقـفة سنة ٧٩٤م وأخذ يفند بعض هذه القرارات، ثم أرسل إلى البابا هادريان بهذه التفنيـدات فى مكتوب عرف باسم «كتاب شارلمان» (Libri Carolini)، مشفوعـا برسالة غاضبة تنصح البابا ألا يتـخذ موقفا فى أمور العـقيدة قبل أن يستشـير شارلمان! وفى رسالة أخـرى كتب شارلمان إلى البابا يفـهمه أنه كرجل دين ينبـغى عليه أن يحصر همه فى القـيام بالصلاة فحسب، وحذره من مغبـة التدخل فى المسائل الشائكة التى هى من





اختـصاص الإمبراطور ومـستشاريه فـقط. وتتضح مفاهـيم شارلمان لسلطانه على الكنيسـة ورجال الدين ومن بينهم البـابا نفسـه من موقفـه من البابا ليـون الثالث نفسـه، فلقد فرض عليـه شارلمان المثول بين يـديه، ثم أمام المحكمة التي عـقدها خصيصا فى مدينة روما ليبرأ نفسه من التهم والجرائم التى نسبت إليه!.

ولم يكن فى مـقدور البـابا ليـون الثالث أن يعـود للجلوس على عـرش البابوية إلا بعـد أن قرر شارلمان براءته وسمح له بذلك. وهذه الحـجج والسوابق هى التى التقطها فيما بعـد الأباطرة الألمان فى صراعهم العنيد مع البابوية، ذلك الصراع الذى جرّ الخراب على كل من البابا والإمبراطور.

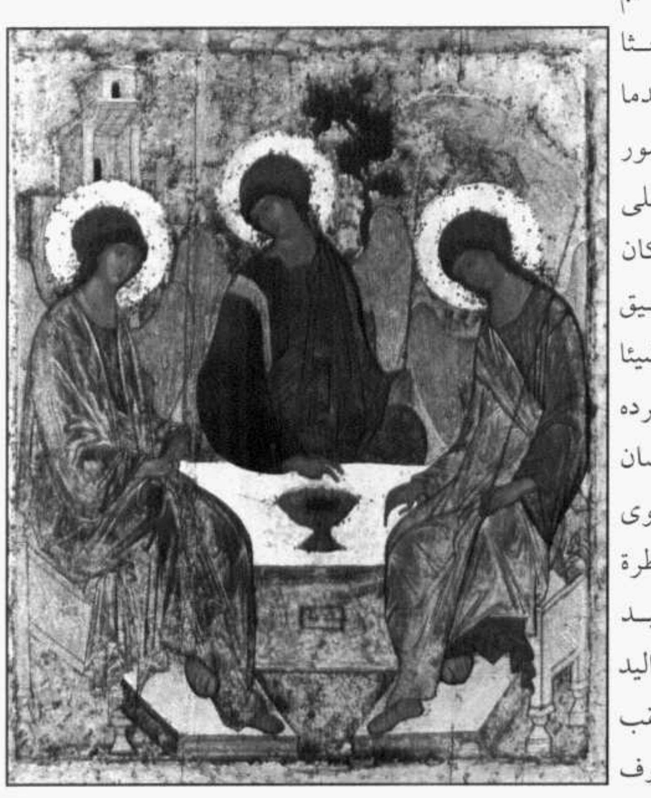
كان شارلمان قد تزوج أربع مرات، وأنجب ثلاثة أولاد وعـددا وافرا من البنات، وقبل وفاته قسم الإمبراطورية بين أولاده الذكور: شارل، وپپن، ولويس. ولكن شارل وپپن توفيا قبل أبيهما، ولم يبق إلا لويس (الملقب بالتـقى) ليرث كل أراضى الإمبـراطورية، وذلك سنة ٨١٤م وهى سنة وفاة شارلمان عن عمر يناهز السبعين عاما.

لا جدال فى أن بنيان شارلمان الضخم قد دفن مع مـؤسسه فى قبره بمدينة إكس ـ لا ـ شاپل سنة ٨١٤م. ولقـد وضع ستـة من ورثته التـاج الإمبـراطورى على رءوسهم وهم: لويس التـقى (ت٨٤٠م)، ولوثيـر (ت ٨٥٥م)، ولويس الـثـانى (ت ٨٧٥م)؛ وشـارل الأصلع (ت ٨٧٧م)، وشارل الـسمين (ت ٨٨٧م)، وأرنولف (ت ٨٩٩م)، ثم لويس الطفل (ت ٩١١م) والذى انتـهت بوفاته سلالة البيت الكارولنجى فى مملكة الفرنجة الشرقيين أو ألمانيا.

الفصل الرابع
الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع

تصدع بنيان شارلمان:

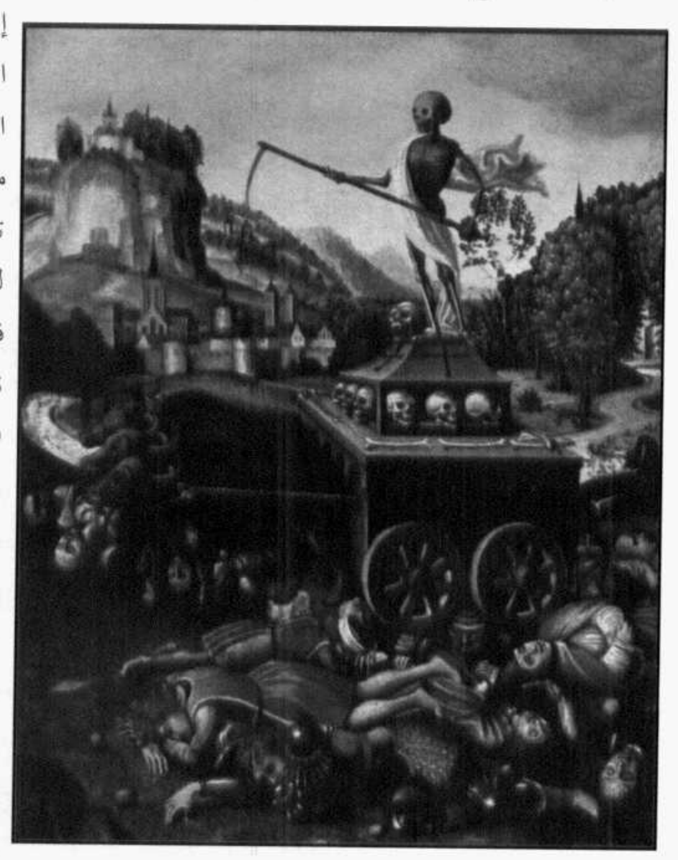
تصدعت إمبـراطورية شارلمان سنة ٨٤٣م فى أعقاب نشـوب حرب أهلية بين أحفاده، وما لبـثت غزوات متبربرة جديدة أن اجـتاحت الغرب الأوروبى فى موجـات متلاحـقة من أهل الشـمال (النورمان) وقـبائل الماجيـار الزاحفـة من الشرق. وفى هذه الظروف المضطربة أخذ نظام الإقطاع فى التبلور ليصبح القاعدة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية لسائر بلدان الغـرب الأوروبى. والواقع أن الطبيعة كـما خبرها إنســان تلك القرون كانت متـجبرة ومستعصـية على الترويض؛ إذ انبسطت على خريطة أوروبا فى ذلك الوقت مسـاحات شاسعة من الأرض لم تمتد إليها يد الإنسان، وإنما كانت مرتعا للحيوانات الضارية من دببة برية وذئاب مفترسة تحوم حول أطراف البرارى والغابات ثم تنقض على قلب الرقع المنـزرعة بحـثا عن فريسـة آدمية. وقد نعـجب عندما نعلم أن بعض الجماعـات فى العصور الوسطى الأوروبية كانـوا يقتاتون على التقـاط الثمار البـرية تماما مثلمـا كان يعـيش الإنسـان البـدائى فى سـحيق الأزمان. ولم يكن الناس يخشون شيئا قدر خـشيتهم ظلام الليل وقـسوة برده وصفـير رياحـه. ومن هنا فإن إنـسان العصور الوسطى قـد أسلم أمره لقوى غيبـية متقلبة الطبع لا سـبيل للسيطرة عليـها أو الـتنبؤ بمفـاجـآتهـا. وتفيـد السجـلات بأن نسبة عـالية من مـواليد تلك العـصـور كـانوا يـهلكون عـقب ولادتهم بقليل بسـبب قسـوة الظروف المعيـشية، ولم يكن حظ الكبـار أفضل



أيقونة من العصر الكارولنجى

من حظ الصغار، فمن لا يهلك فى الغابة يقتل فى الحروب، ومن يفلت من هاتين المحنتين لا يعمر أكثر من أربعين عاما فى أغلب الأحوال.

إن تلك الظروف القاسية هى التى شكلت عقلية العصور الوسطى، إذ كان الناس يرون فى مظاهر الطبيعة من عواصف وبرق ورعد علامات على سوء المصير، وأصيب المجتمع بحال من التوتر والهلوسة، وتاه العوام والخواص فى غيبة أشبه ما تكون بأحلام اليقظة. وفى هذا المناخ نشطت البيوتات الديرانية فى تفسير الأحلام والرجم بالغيب، وفسروا الظواهر الطبيعية بخيال ساذج فى زمان غاب فيه العلم وتوارى عنه حكم المنطق والتعقل. ومن هنا فإن من يتصدى لتأريخ العصر الوسيط فى أوروبا يصطدم بالضرورة بمشاعر من اليأس ونوبات الغضب وتقلب الطباع، وبالأفكار القهرية الاستحواذية وغيرها من التناقضات الصارخة بين طبقات المجتمع، ويترتب على هذا كله صعوبة بناء تاريخ عقلانى لعصر لم يعرف أبجدية العقلانية، فنحن أمام عصر وصف بأنه عصر «الإيمان الأعمى». وتتضح هذه اللاعقلانية فى حوليات العصور الوسطى، فلم يكن لدى أغلب القوم إحساس بعامل الزمن ولا بدلالة الرقم، حيث لم تكن لديهم الوسائط التى يقيسون بها الوقت من ساعات مائية أو شمسية، ولم تكن الأخيرة حتى إن وجدت لتجدى كثيرا فى جو ملبد بالغيوم فى أغلب فصول السنة. ونحن نعلم أن الملك ألفرد الإنجليزى (قرن ٩م) كان يستعين بعدد مهول من الشموع يشعل الواحدة من الأخرى لمتابعة مرور الساعات. ولم يكن الزمن ذا قيمة واضحة المعالم فى أذهان هؤلاء القوم؛ ولذا فإن العديد من الوثائق والسجلات تخلو من التأريخ، مع أنها كتبت أصلا لكى تصبح سجلا زمنيا لرصد حدث معين أو مناسبة



تصور الموت - رسم من العصور الوسطى



هامة كتاريخ ميلاد أو وفاة أو وراثة أرض أو حفل تكريم وما شاكلها. وقد تواكب مع هذه اللامبالاة بعامل الوقت لا مبالاة شبيهة بالأرقام والأعداد والإحصاءات، وعليه فإن المؤرخ يجابه فى حوليات العصور الوسطى بأرقام خرافية حول أعداد الجند وعدد القتلى؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر تذكر الوثائق أن وليم الفاتح دوق نورماندنيا كان يقود ما بين ثلاثين وستين ألفا من الفرسان يوم أن غزا إنجلترا سنة ١٠٦٦م، بينما توضح الأبحاث الحديثة أن وليم لم يكن يقود فى غزوه لإنجلترا أكثر من خمسة آلاف من الفرسان!

كانت اللغة اللاتينية هى لسان العصر، ولكن غالبية الناس كانوا يتخاطبون باللهجة المحلية العامة (Vernacular)، ومن هنا وجدت ثنائية حتى فى اللسان، إذ كانت الجرمانية والكلتية والأنجلوسكسونية والفرنسية القديمة تفرض نفسها جنبا إلى جنب قبالة اللاتينية، ولقد تعرضت اللاتينية الكلاسيكية لتدهور كبير عندما تسربت إليها ألفاظ كثيرة من أصول «متبربرة» حتى تساير روح العصر ومتطلبات أهله، ناهيك عن انهيار قواعد النحو والأسلوبية. ولكن اللاتينية ظلت لغة الكتابة الوحيدة، وهنا نجابه صعوبة أخرى، فلو أن مشادة وقعت بين اثنين من الفرسان حول إيجار إحدى الإقطاعيات، فإنهما يتنازعان ويتجادلان طيلة الوقت باللسان المحلى وليس باللاتينية، غير أنه عندما تسجل لنا وقائع تلك المشادة فإنها تسجل باللاتينية بيد واحد من الكتبة المحترفين. وغنى عن البيان أنه بين ما يرد إلينا باللاتينية وبين ما قد وقع بالفعل باللسان المحلى هوة جد سحيقة!

يضاف إلى هذا أن اللاتينية الوسيطة كانت لسانا قاصرا فى الغالب على رجال الدين فهم الطبقة الوحيدة المتعلمة، أما العالم العلمانى فكان أبعد ما يكون عن اللسان اللاتينى. ويكفى أن نعلم أن إمبراطورا عظيما مثل شارلمان ذاته لم يكن يجيد القراءة ولا الكتابة، وأن أوتو العظيم مؤسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم يكن يعرف حروف الهجاء، كما أن أبناء الطبقة الإقطاعية النبيلة شمال جبال البرانس والألب كانوا أميين (Illterati) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، لدرجة أن الغالبية العظمى منهم ممن اعتادوا على زيارة الأديرة فى أمسياتهم لم يكونوا بقادرين على مجرد القراءة (Idiota) فى الكتب المقدسة. وفى هذا المناخ لم يكن أحد ليجرؤ على مجرد التشكيك فيما يقوله رجال الدين، حتى لو كان ما يقال أحيانا منافيا لأبسط قواعد المعقولية!

بلاط الملوك الإقطاعيين:

ولرسم صورة لأوروبا الإقطاعية ينبغى أن نلاحظ أن المجتمع قد أخذ بفعل الظروف يتشكل فى طبقات ثلاث: قوم وظيفتهم الصلاة، وقوم وظيفتهم الحرب؛ وقوم وظيفتهم فلاحة الأرض. ومع أن الإقطاع قد ورد من منابع جرمانية مع قبائل القوط والفرنجة، إلا أن للإقطاع أيضا جذورا رومانية؛ ذلك أن تغيير وضع الفرد بالنسبة للآخرين على أساس حيازة الأرض أمر يرجع إلى القرن الثالث للميلاد، فعندما ازدادت وطأة الضرائب على كواهل الفلاحين لجأوا إلى رهن



أراضيهم إلى السادة الأغنياء مقابل قـرض معين. وعندما عجز الفلاح عن سداد ديونه ضاعت عليـه الأرض وأصبح مجرد أجـير على أرض كان يملكها يـوما ما ولكنها لم تعد ملكه بعد. كما شهد نفس القرن محاولات الفلاحين الرومان فى التهرب من دفع الضـريبة للدولة وذلك بالتنازل عن الأرض لأحد كـبار موظفى الدولة أو من طبقـة السيناتوريين المعـفاة من الضريبـة، وفى مقـابل ذلك يسمح السـيد الجديد لـلأرض للفلاح بالاسـتمـرار فى زراعة الأرض مـقابل خـدمات والتزامـات أقل وطأة من الضريبـة الحكوميـة، وبالتدريج ضـاعت الأرض على جماعات كثيرة من الفلاحين فتحولوا إلى معدمين تماما. كذلك عندما نقص عدد العبيد بالإمبراطورية الرومانيـة قلتْ الأيدى العاملة فى فلاحة الأرض، واضطر السادة من أصحاب الأراضى الشاسعـة إلى السماح لبعض الفلاحين بزراعـة شرائط من أرض السيادة المهجـورة مقابل أجـر هزيل أو جزء من المحـصول، وقـد عـرف هؤلاء باسم «المعمـرين» (Coloni)، وهم النواة الأولى لجماعة الأقنان (Serfs) فى العصور الوسطى.

كما أن الفـرق الجرمانية التى احـتلت الولايات الإمبراطورية أقامت على الـتراب الرومانى ممالك جرمانـية قوية. وكـانت العادة أن يحصل أفـراد هذه الفرق على رواتبـهم عن طريق النهب والسلب والغنائم، غير أن القوط الغربيين (Visigoths) عندما دخلوا غالة ثم إسبانيا ابتدعوا نظاما جديدا بتوزيع الأراضى على محـاربى هذه الفرق، وبذلك يكون العرف القوطى فى توزيع الأرض على المحاربين هو النواة الأولـى للنظام الإقطاعى، وإن كان ذلك العصـر لم يخلع على من يتلقى الأرض لفظة «فصَّلْ» (Vassalus) الإقطاعية الدلالة.

وعندمـا تحطمت الحكومة المركـزية فى أواخر حكم الكارولنـجيين فى غـالة، صارت إدارة شئون الولايات فى أيدى نواب الملك الملقبين بلقب «كونت» (Comes) وهى كلمة مشتقة من لفظة «كوميتاتوس» (Comitatus) بمعنى «رفاق» زعيم القبيلة فى ميدان القتال. ثم أخذ هؤلاء الكونتات فى حكم ولايات المملكة نيابة عن الملك، وفى بعض الأحيان كـان الملك يعهد بشؤون إقليم كامل لواحد من أفراد البيت الملكى الذى أنعم عليه بلقب «الدوق» (Dux). وفى بداية الأمر كان هؤلاء النواب الملكيـون يحكمون الولايات باسم الملك، غـير أنه عندمـا ضعـفت هيـبة التاج راح هؤلاء يحكمون الولايات لصـالحهم متجـاهلين حقوق حامل التـاج. ونلمس ازدياد نفوذ هؤلاء الأدواق والكونتات فى العصـر الكارولنجى فى غالة من تلك الإجراءات التى اتخذها شـارلمان عندما أصر على تعـيين «مبعـوثين ملكيين» (Missi Dominici) لمتابعـة سير الأمـور فى الولايات ولمحاسـبة الأدواق والكونتات وضـمان بقائهم خـاضعين لسلطان التاج، غيـر أنه مع انهيار الحكومـة المركزية وقيام الحروب الأهلية بين أحفاد شارلمان، ازدادت قبضة الأدواق والكونتات قوة وراحوا يقيمون فى





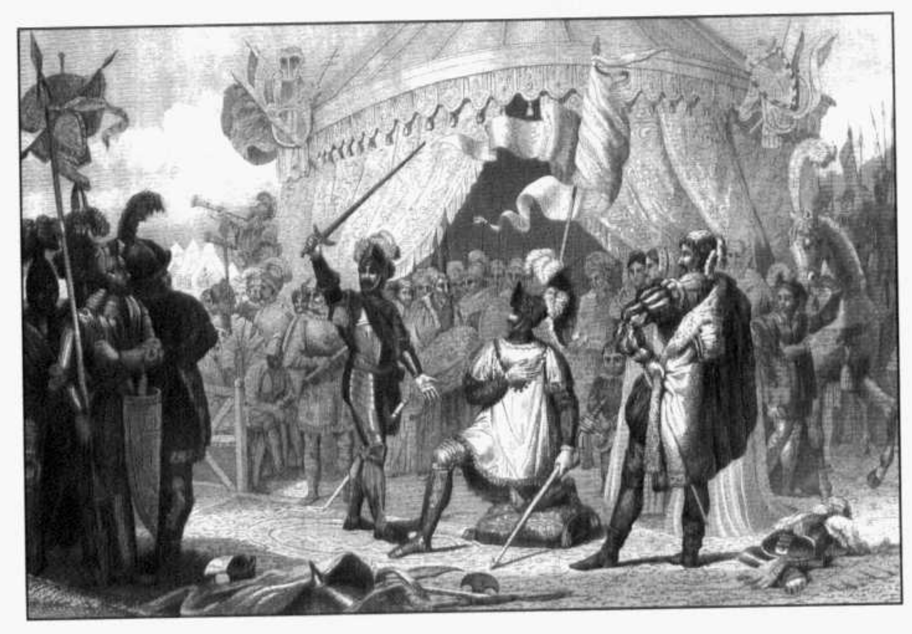
التتويج الملكى

ولاياتهم محاكم خاصة بهم، كما اقتنوا الجيوش الخاصة أيضا، والأهم من هذا وذاك أنهم أخذوا يقطعون أراض لأتباع (أفصال) لهم مقابل الخدمة العسكرية فى صفوفهم، وكثيرا ما كانت الحروب تشن ضد حامل التاج نفسه! ولم يملك الملوك الضعاف إلا أن يسلموا بالأمر الواقع، مكتفين بيمين الولاء للتاج وبتعهد بالمساهمة بعدد من الفرسان فى وقت الحرب، وببعض من المال فى بعض المناسبات، وبهذا ضرب النظام الإقطاعى بأركانه فى مختلف البلدان الأوروبية.

وعندما قامت الملكيات الإقطاعية فى غرب أوروبا متمثلة فى آل كاپيه فى فرنسا؛ وفى خلفاء وليم الفاتح النورماندى فى إنجلترا؛ وفى السكسون فى ألمانيا، أصبح حامل التاج من الناحية النظرية سيدا إقطاعيا على الجميع فى مملكته، فهو يتربع على قمة الهرم الإقطاعى ويتلقى التاج فى أغلب الأحيان بالوراثة، على أنه قبل تتويجه ملكا، كان يلقب بلقب «السيد» (Dominus) شأنه فى هذا شأن سائر السادة الإقطاعيين الآخرين فى المملكة، غير أن حفل التتويج الملكى ومسح الملك المتوج بالزيت المقدس على يد كبير من رجال الدين يجعل منه ملكا «بإرادة الله» (Rex Dei gratia)، وهذا الطقس يخلع على صاحب الجلالة مسحة دينية تضاف إلى صلاحياته العلمانية، فإذا كان الجالس على العرش شخصا قويا فإنه يملك ويحكم أيضا؛ فهو الذى يعين كبار المسئولين فى أجهزة الحكم وفى البيوتات الدينية، وهو الذى يوجه السياسة الخارجية، ويعلن الحروب ويقود الجيوش ويبرم معاهدات السلام. وللملك أيضا دخله الخاص من ضياعه الإقطاعية كأى سيد



إقطاعى آخر، إلى جانب دخوله الأخرى من «أفصاله» المنتشرين فى أقاليم المملكة. ويلاحظ على الملك الإقطاعى أنه كان دائم الترحال هو وحاشيته من قلعة إلى أخرى، وهو يتحرك فى موكب محمل بالوثائق وبالخزانة الملكية أيضا. وقد كشفت وثيقة من عصر الملك هنرى الأول الإنجليزى (١١٠٠ ـ ١١٣٥م) عن طبيعة البلاط الملكى المتجول؛ فهو يجمع رتلا من القوم يتدرج بين كبار الموظفين حتى الصبية الذين يسهرون على مواقد التدفئة. ويقف على رأس هذه الحاشية، مستشار الملك (Chancellor)، وكان يُختار عادة من بين كبار رجال الدين، ويقف على قدم المساواة مع كبير الأمناء (Dapifer) الذى يشرف على الجناحْ الملكى (Aula) والمائدة الملكية؛ ثم هنالك الموظف المنوط بالإشراف على مخدع الملك (Camerarius)؛ ثم يأتى بعد هذا أمين الخزانة الملكية والتى كانت توضع فى صندوق خاص فى حجرة نوم الملك، وهناك موظف يشرف على الشراب والفاكهة (Piacerna)، ويساعده فى عمله عدد من حملة الكئوس وأمناء المخازن وإخصائيون فى انتقاء الفواكه التى تروق ذوق صاحب الجلالة، وهناك الكونستابل الذى يشرف على الحرس الملكى وخدم الإسطبلات، ويعينه فى مهمته «المارشال» الذى كان من مهامه الأخرى حفظ النظام. وإلى جانب هؤلاء كان هناك حراس كلاب الصيد ومدربوها، والمشرفون على تربية الصقور، إلى جانب نفر من المتمرسين فى صيد الذئاب والوعول والقطط البرية (Catatores). وكان البلاط الملكى أشبه ما يكون بدار الحضانة، يتدرج فيها الموظف الذكى الماهر حتى يحتل موقعا مميزا، وكثيرا ما دفع كبار النبلاء مبالغ طائلة من المال للملك كى يسمح



الطاعة والوفاء

لأبنائهم بشـرف الخـدمـة فى البلاط لاكـتـسـاب الخبـرة وإتقـان آداب المعـاملة (Courtoisie).

لم يكن الملـك الإقطاعى فى بداية الأمـر أكـثـر من «الأول بين أقـرانه» (Primus inter pares) من السـادة الإقطاعيين من أدواق وكـونتات؛ ولذا أقـام الملوك مجلسا ملكيا (Curia Regis) تألف من أفصال التاج من البارونات وكبار رجال الدين إلى جانب كـبار موظفى البلاط وهـم المستشار الملـكى وكبير الأمناء ورئيس الخزانة. وكان عصر الملكيات الإقطاعـية عصر حروب لا تهدأ، وإن كان الملك لا يمارس الحرب كل يوم إلا أنه يستعد لهـا كل لحظة. ولقد تلقى البارونات إقطاعياتهم من التاج مقابل الخدمة العسكرية بأنفسهم وبفرسانهم (Servitium debitum)، ولـم يكن جيش الملك الإقطاعى كبير الحـجم، ففى إنجلترا على عهد النورمان لم يكن الجـيش يزيد على سبعة آلاف من الفرسان. وكان على الفارس أن يؤدى هذه الخدمـة القتالية لمدة أربعين يوما فى العام وقت السلم، أما فى وقت الحرب فـإن هذه المدة قد تطول لتصل شهـرين كاملين. وإذا ما استـمرت الحرب لمدة أطول من الشهرين فإنه لا يجوز للفارس (البارون) أن يترك ميدان القتال ويتخلى عن الملك؛ بشرط أن يتحمل الملـك نفقات الفارس عن خدمـة المدة الزائدة. وفى القرن الثالث عشـر جدَّ نظام يدفع الفارس بمقتضاه مبلغـا محددا من المال إلى التاج عرف باسم «Scutage» أى «البدل» للإعفاء من الخدمة العسكرية.

إن أوضح ما يميـز العلاقات فى المجـتمع الإقطاعى هى صلة الدم، وهى مـوروث جرمانى الأصل، وقد عـرفت هذه الصلة فى فرنـسا باسم «Lineage» أى «التحدر»، ولقـد تعززت هذه الصلة عندما التحمت بوشائج الولاء والطاعة. وفى مجتمع كهذا تنمو بطبيعة الحال مشاعر الانتقام وطلب الثأر صيانة لنقطة الدم (Vendetta) التى قد تصيب أحدا من الأنساب. وقد وضحت هذه المشاعر بوجه خاص بين الفريزيين، حيث كانت جثة القتيل تبقى دون أن تُدفن حتى ينتقم له ذووه من القاتل. وقد ظهرت ملاحم شـعبية كثيرة تمجد أعمال الانتـقام وطلب الثأر بين عائلات عديدة فى إيطاليـا وفرنسا وإسـبانيـا. وإلى جانب صلة الدم تولدت فى المجـتمع الإقطاعى صـلة أخرى هامة، وصـفها لسان الـعصر بعبـارة: «فلان من الناس هو رجل السيـد فلان» (Homo Suus)؛ فالكونت «رجل» الملك، والفارس بدوره «رجل الكونت». ولفظة «رجـل» فى هذا السياق الوسيط ذات دلالة خاصة، فـهناك وثيقة ترجع إلى القـرن الحادى عشر تحـمل شكوى بعض الراهبات إلى دوق نورمانديا يطلبن فيها من الدوق أن يتدخل لأن واحـدا من البارونات قد أجبر «رجالهن» على الخدمة فى قلاعه دون وجـه حق، وواضح أن تعبير «رجالهن» هنا لا يعنى شيئـا بالنسبة للراهبات أكثر مما كان يفهـمه العصر من هذا المصطلح. ومن كلمة «Homo» هذه جاءت كلمة «Homage» بمعنى «الولاء» وهى تعبير عن حقيقة قـائمة بالفعل بين طرفين، الأول يتقبل أداء الخدمة العسكرية



والثـانى يحتـاج إلى هذا «الرجل» بالذات لأداء هذه الخـدمـة الهامـة. والاثنان بالضرورة من طبـقة النبالة ويتم الاتفاق بينهـما وفق مراسيم خـاصة، أبرزها أن يضع «الفصل» (التابع) يديه بين يدى السيد (Suzerain) ثم يتلقى منه قبلة العهد والميثـاق. والولاء تقليد چرمـانى الأصل يرجع إلى لفظة «mannschaft»، وقد أدخلت على هذا التقليـد فى العصر الكارولنجى بعض الطقوس الدينيـة كالقسم على الكتب المقدسة أو الأيقـونات، ومن هنا تولد اصطلاح «الطاعة» (Fealty) أو «الوفاء» (Treue).

العقد الإقطاعى

ومراسـيم الولاء والطاعة تلك هى التى تقنن العـلاقات بين السيـد والفصَّل، وبهـا تكتمل عناصر «العقد» الإقطاعى. وكان على الفصل أن يركع أمام السيد ثم يضع يديه داخل يدى السيد، ثم يقسم له على أن يبقى له وفـيا فى كل الأمور وأن يخدمه بكل إخـلاص، مؤكدا له بأنه بذلك يصبح «رجله» (Homo) الذى يتحلى بفـضيلة الطاعة. وهنا يطبع السـيد قبلة على وجـه الفصل ويعلن قـبـوله «تابعا» لـه، ثم يضع بين يديه قطعـة من «الطين» (Seisin) عـلامة على إقطاعـه بالأرض.

لقد تولدت هـذه النظم بعد انهيـار سلطة الحكومة المركـزية فى فرنسـا، فى جو محـفوف بأخطار التهـديد الخارجى «المتبـربر»، ولم تعد الحكومة قادرة على تـقديم الحماية الكافـية للناس، وباتت العائلة عاجزة عن حماية أبنائها من غائلة هجوم مفاجئ؛ ولذا فإن كل فرد بات محتاجا إلى من يبسط عليه جناح الحمـاية، وحتى الأقوياء أصبحوا هم أيضا فى حاجـة ماسة إلى أتباع أشداء يشدون بسواعدهم وسـيوفهم من أزرهم. ولم يكن هؤلاء القوم وهم يقيمـون تلك العلاقات التى أملتها الظروف القاسـية يخططون لنظام تصوروه مسبقا؛ ولذا فإن الاجـتهاد فى البحث عن جذور الإقطاع عند الرومان أو الچرمان، وإن كان يفيد فى إلقاء بعض الضوء على تلك العلاقات، إلا أنه لا يكفى لشرح ظاهرة الإقطاع التى لا بد من التـأكيد على أنها من إمـلاء الظروف قبل كل شىء، ولعل المثل القائل بأن الناس يشبهون أزمانهم أكثر من شبههم بآبائهم يصدق هنا تماما.

نحن إذن أمام مجـتمع عجزت فيه الحكومـة المركزية والعائلة عن تقديم ضمـانات بالحماية للفرد، وفى تلك الظروف العصـيبة انهارت روابط الانتماء التقليـدية، ولم يكن هنالك من مخرج لالتماس هذه الضمانات إلا عن طريق التبعية الإقطاعية.

ولما أن تعقدت العلاقات الإقطاعية، وصـار بمقدور الفصَّل أن يتلقى أكثر من إقطاع من أكثر من سيد واحد، ابتكر أهل العـصر نمطا جديدا من التبعية ظنوا أنه أكثـر وثوقا من السابق وأطلقوا



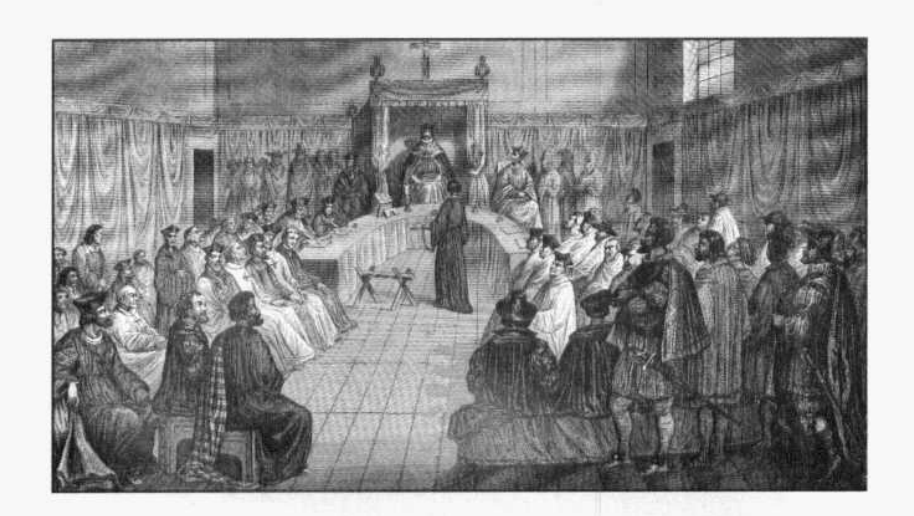
فى ميدان القتال وهو ذلـك السيد الذى يدين له وحده بالولاء الكامل أو المطلق، مكتفـيا بإرسال بعض المسـاعدة الرمزية لبـقية السـادة. وقد التزم كل من السـيد والفصل وفقا للعـقد المبرم بين الطرفين ببعض الواجبات والحـقوق، فكان الفصل ملزما بالخدمة العسكرية إلى جوار سيده، والعمل على الحفاظ على حياته وأرضه وشرفـه. وفى مقابل هذا تعـهد السيـد ببسط الحمـاية على فصّله ومـعاملة ذويه بالاحتـرام وقواعد الشرف. كـذلك كان الفصّل مطالبـا بأن يقدم للسيـد «عونا» (Taille) فى صورة هدايا فـى بعض المناسبات مـثل تقليد الابن الأكـبر للسـيد للفروسـية، أو عند زواج كبرى بناته مـثلا. وعند موت الفصّـل كان ابنه الأكبر مطالبـا بدفع مبلغ معين من المال للسيد، وعرف هذا باسم «وفاء الحق» (Relief)؛ ذلك لأنه من الناحية النظرية تظل الأرض ملكا للسيد وتعود إليه عند وفاة الفصّل، ولكى يرثها الابن عن أبيه المتوفى إقطاعا لا بد له من وفاء الحق للسيد لتجديد مراسم العـقد الإقطاعى. وفى بداية الأمر لم يكن السيد ملزما بإعطاء تعهد كتابى بالتزاماته نحو أفعاله، وإنما كان يكتفى بكلمة الشرف (Parole d`honneur) أمام بعض الشهود، على أنه فى القرون التـالية ظهرت مواثيق مفصلة تعدد واجبـات وحقوق الطرفين. وكان على السيد أن يحافظ على شرف الفصّل حتى بعد وفاة الأخير بمعنى بسط الحماية على آل بيته بعد الوفاة، كما أنه كـان مطالبا بإنصاف أفصاله من أى ظلم قد يقع عليـهم ولو كان هذا الظلم صادرا من جانب السيد نفسه!

إن نظام السيادة والتبعية هذا كان البـديل الجديد للانتماءات العائلية التى تمزقت بفعل عوامل العنف والشغب فى المجتمع الإقطاعى. وقد أحيط هذا النظام بـقدر وافر من التقدير والاحترام إلى



الحروب الدامية

حد أن القانون الأنجلو سكسونى فى القـرن العاشر كان ينظر إلى الشخص الذى «لا سيـد له» على أنه «خارج على الـقانون» (Outlaw). وأخذت الروابط بين السيد والفصًل تتوطد حـتى غدت أقوى من صلات الدم ذاتها، وليس أدل على هذا التحول من أن القانون النورماندى كان يعـاقب جريمة قتل أحد السادة لواحد من أفـصاله بنفس القـدر الذى يعـاقب به جرائم قـتل الأهل. وقد جـرت هذه الصلات معها فكرة الثأر لمقـتل أى من الطرفين بيد غريبة، وصارت لفظة الأخذ بالثأر (Ultor) اللاتينيـة مرادفـة عند أهل العـصور الوسطـى للفظة «الانتقـام» (Mundporo) الجرمانية الأصل. وصـارت تلك السمة قاعدة حتى فى المحـاكم، ففى إنجلترا فى القرن الثانى عشر كان لا يجوز التبليغ عن جريمة قتل إلا إذا كان القتيل قريبا أو فصًلا أو سيدا لمن يقدم البلاغ، ولهذه القاعدة جذور جرمـانية نجدها فى ملحمة «بيولف» (Boewulf) فعندما اغتيل هذا الزعيم البطل صار لأتبـاعه الحق كل الحق ليس فقط فى المطالبة بالثأر لدمـه أو الانتقام، وإنما أيضا فى المطالبة بنصيب من «الدية» التى تدفع تعويضا عن هذا القتل (Wergild).



المحكمة

كان العـقد الإقطاعى يبـرم بين رجلين ينتمـيان فى جـميع الأحـوال إلى الطبقة العـليا فى المجتـمع، وإن كانا من درجـات متفـاوتة فى سلم النبالة. وفى حـالة خرق أحد الطـرفين للمواد الواردة فى العقد يصبح الإقطاع «لاغيا» (Forfeit)، ويتم هذا الإلغاء أيضا وفق مراسم خاصة فى حضور الطرفين المتخـاصمين أمام حشد من الشهود ويقف الطرف المتظلـم ليلقى بخصلة من شعر رأسه أو بخيوط من ردائه على الأرض، عـلامة على بطلان العلاقة القديمة. وكثـيرا ما كانت هذه

اللحظات مشارا للحرج والكدر والتحدى (Defi)، ولا يحسم الأمر عندها إلا بالمبارزة بين الطرفين. وفى حالة ثبوت وقوع الخطأ من جانب الفصل، تصادر إقطاعيته وترد للسيد (Commise). أما إذا اتضح أمام الشهود بأن الخطأ قد وقع من جانب السيد، فإن للفصل الحق فى رفع مظلمته أمام محكمة السيد نفسه أو محكمة سيد السيد، وهكذا تدرجا فى السُلَّم الإقطاعى وصولا إلى حامل التاج نفسه. وكانت محكمة السيد تتألف من السيد نفسه ومن بقية أفصاله، وغنى عن البيان أنه كان من صالح الأفصال أن يقفوا فى المحكمة إلى جانب رفيقهم الفصل المتظلم ضد سيدهم، حرصا على مصالحهم وخوفا من وقوع نفس الضرر عليهم ذات يوم.

ورغم هذا كله فلا بد من الاعتراف بأن هذه المحاكم لم تكن ذات فعالية تذكر؛ ذلك لأن روح العصر من عنف وخشونة أملت على الناس حسم المواقف بالسيف والسيف وحده، ولعل المثل القائل «القوة هى الأحق» (Might is right) يعبر خير تعبير عن روح العصور الوسطى فى أوروبا. وفى نفس الوقت فإن وثائق العصر ترسم صورة وردية لكثير من العلاقات الحميمة بين السيد والفصل، فالفصل مرادف «للصديق» (Amicus)، وهو «المفضل» لدى النفس (Dru). وفى قصيدة للشاعر دون دىماينس نطالع أبياتا تفيض بمشاعر نبيلة من الود الخالص بين الفصل وسيده:

«لو أن سيدى قتل فإنى معه أموت... لو أن سيدى شنق علقونى بجواره... لو أن سيدى سيق إلى المحرقة دعونى أحتضن معه جمر النار... لو أن سيدى يغرق ففى بطن اليم يكون معه قرارى».

شعراء الطروبادور

ولقد اتخذ شعراء الطروبادور (وهى كلمة مشتقة من الكلمة العربية: الطرب) فى الجنوب الفرنسى من هذه العلاقة الحميمة بين الفصل والسيد خطابا لدلالات الحب والهيام فى إقليم بروفنسال. وقد وافق هذا الاقتباس طبيعة قصص الغرام فى ذلك العصر؛ فالمحب الولهان فى أغلب الأحوال كان من طبقة أقل فى سلم النبالة من الطبقة الأعلى التى تنتمى إليها المحبوبة أو «سيدة القلعة»؛ ولذا فإن شعراء الطروبادور يشيرون إلى المحبوبة بعيدة المنال لا فى صيغة المؤنث وإنما فى صيغة المذكر، فتخاطب بعبارة: «يا سيدى الجميل» (Bel Senhor) بدلا من «سيدتى الجميلة». وقد وجدت هذه الروابط طريقها إلى أساليب المجاز وكتابات الأدب الشعبى والأمثال، فأصبح يقال مثلا: «إن فلانا قد أصبح فصًّلا للشيطان» للتدليل على صرف حياته لفعل الشرور. ولم تسلم الكتابات الدينية والمواعظ من لغة العلاقات الإقطاعية، فلقد أخذت الصلاة صورة ضم اليدين فى خشوع تام، مثلما كان يفعل الفصل بين يدى سيده وقت أداء يمين الولاء والطاعة.



هذا عن الجانب المشرق لوجه العملة، أما الوجه الآخر فإنه يصور الحروب الدامية التى قامت بين الأفصال وسادتهم، وإن كان هذا لا يعنى أن جميع الأفصال كانوا يشنون الحروب على قلاع سادتهم. ونقرأ فى آداب العصر «أن الجميع قد أقسموا يمين الولاء؛ البعض كانوا للقسم أوفياء ولكن البعض الآخر تنكروا جاحدين لما أقسموا عليه». إن هذه المعانى تفصح عن روح العصر وعن الهوة السحيقة بين النظرية والواقع، وهنا يكمن التناقض فى مختلف نظم العصور الوسطى ومن بينها نظام الإقطاع.

ولفهم أسباب التدهور الذى أصاب العلاقة بين السيد والفصَّل يجب أن نتذكر أن نظام التبعية فى صورته الأولى كان يحتم على الأتباع الالتفاف حول زعيمهم (سيدهم) فى قلعته، حيث كانوا يحيطون السيد (Herr) بمشاعر الاحترام، فهو قائدهم ومورد إقطاعهم، وكان الأتباع بالنسبة للسيد بمثابة «الرفاق» (Gasindi) أو «الأبناء» (Vassi) أو مورد رزقهم وأخبارهم (Hlafoetan)، ولكن تبدل الظروف وتعقد الأحوال وازدياد المشاجرات أدى بالأتباع إلى أن يهجروا قلعة السيد لكى يتمكن كل منهم من السهر على حماية إقطاعه الأصغر حجما، وخاصة وقت الغزوات النورماندية والهنغارية. وأمام هذه التحولات المتتابعة بدأت بعض مصالح السادة تتعارض مع مصالح الأفصال، فكان لا مفر من وقوع الصدام بين الطرفين. يضاف إلى هذا أن نظام توريث الإقطاعيات لأبناء الأفصال المتوفين قد ساهم فى غرس الأحقاد والضغائن فى نفوس الطرفين. ولم يكن الوريث لإقطاعية ما يقوم بأداء مراسم الولاء والطاعة للسيد إلا لكى يضمن الحفاظ على رقعة الأرض التى كانت بيد أبيه، بغض النظر عن مشاعره الحقيقية تجاه هذا السيد. وكان على الوريث أن يؤدى نفس الالتزامات التى كان يؤديها والده للسيد، وهى فى أغلبها التزامات عسكرية فروسية قد لا يتقنها أو يرغب فيها الابن بنفس القدر الذى كان يوفيها به الأب المتوفى من قبل. ومن هنا فإن الشعور بحرية الاختيار، وهو من المفاهيم التى أخذت تسرى فى مختلف الأوساط مع ازدياد التعليم وازدهار الجامعات، قد أصيب بالإحباط عند الأبناء من ورثة الأراضى الإقطاعية؛ ولذا فإن عددا كبيرا من الأفصال قد تمردوا واشتبكوا مع سادتهم واستولوا على الأراضى منهم بقوة السيف.

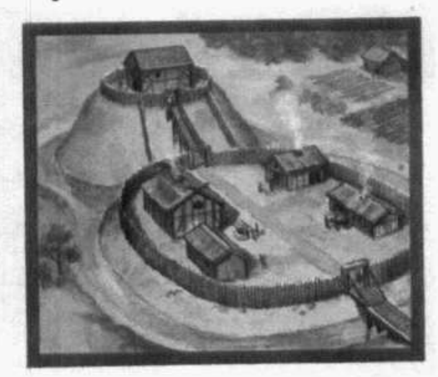
كانت النبالة فى عرف القبائل الجرمانية تتمتع بامتيازات خاصة، وأبرز هذه الامتيازات الحق فى تعويض كبير القيمة فى حالة وقوع ضرر بهم (Wergild)، وتشير الوثائق الأنجلوسكسونية إلى أبناء هذه الطبقة بأنهم «ولدوا أعزاء» (Edelinge) دون سائر الناس، على أنه عندما أقام الجرمان ممالكهم على حطام الإمبراطورية الرومانية لم تعد علامات السمو فى المجتمع تقوم على عامل الوراثة وإنما على قدر ما يملكه الفرد من أراض ونفوذ. وليس أدل على سقوط عامل الوراثة فى ارتباطه بالنبالة من أنه لا يمكن أن نتتبع شجرة أنساب أهم الأسر الحاكمة فى أوروبا إلى عهود بعيدة

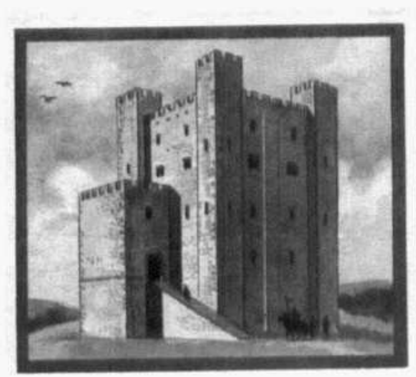




في الماضي، فالجد الأكبر لعائلة ولف (Welf) التي لعبت دورا كبيرا في تاريخ ألمانيا كان واحدا من الكونتات التابعين لدوقية باڤاريا وهو الذي تزوجت ابنته من الملك لويس التقي ابن شارلمان؛ كما أن نسب كونتات تولوز في فرنسا لم يتضح إلا في عهد لويس التقي أيضا؛ أما ماركيزات إڤريا

القلعة والفلاحة





تطور القلاع

الذين صاروا فيما بعد ملوكا على إيطاليـا، فقد ظهروا على مسرح الأحداث فى عهـد الملك شارل الأصلع؛ وأمـا فرع لودلڤنج أدواق سكسونيـا ثم ملوك ألمانيا لبعض الوقت فقد ظهروا على مسرح الأحداث فى عهد الملك لويس الطفل؛ أما أسرة البوربون الفـرنسية فقد انبـثقوا من آل كاپيـه وهم أعرق الأسر فى أوروبا، وإن كنا لا نعرف شيئا عن الجد الأكبر لكاپيه سوى أنه كان يلقب بروبرت القوى وأنه قتل فى غـالة سنة ٨٦٦م، وإن كان البعض يرجـعه إلى أصول سكسـونية. وفى إيطاليا ظهرت عائلة ألتونى (Altoni) وهم أبناء لزعيم يدعى سيجفريد من لوكـا الذى توفى سنة ٩٥٠م، ولا يمكن تعـقب أثرهم قبل هذا التـاريخ. هذا، وقد ظهرت فى منتـصف القرن العاشر أسـرة قوية من ولاية سوابيا هى أسرة بـانبرج التى أسست دولة النمسا.

هذا عن أكثـر البيوتات الأوروبيـة عراقة فى أوروبا، أمـا إذا أردنا أن نتتبع أصـول عائلات الطبقات الإقـطاعية الأقل شأنا، فإننـا لن نعثر على شىء يفيـد. ويمكن القول أن النبالة بمفهـومها القديم سواء عند الرومـان أو الچرمان لم تعد واردة فى عصر الإقطاع، وصـار النبيل هو الشخص الذى لا يوجد بين أجداده من كان من العبيد، وهو فـى نفس الوقت الذى يملك مساحات شاسعة من الأرض الزراعية، إلى جانب مـقدرته على حمل السلاح وامتطاء صهوة الخـيل كفارس مسلح بالسيف والحربة والخوذة والدرع الثلاثى أو المستدير.

الفرسان

وكلمة فارس فى الـعصور الوسطى الأوروبية ترادف كلمـة «مقاتل» (Miles)، وهى أيضا مرادفة لكلمة «فصَّل»، وقد اعتبر الفرسان مـهمة القتال أهم بكثير لمجتمع الإقطاع حتى من واجب الصلاة. وكان الفارس يفخر بقوته الجسمانيـة، وبعضلاته المفتولة، وهو يكتسب هذه اللياقة البدنية بالمران منذ نعومـة الأظفار فى واحدة مـن قلاع السادة، وتصـوره وثائق العصر فـارعا فى الطول، منبسط الأطراف، عريض المنكـبين، صلب العظام، متناسق الأعضاء، مزدانا بآثار جـراح السيوف على جسده، وهو فوق كل هذا أكولٌ نهم يتمتع بشهية الخيل.

على أنه كان مطلوبا من الفارس من الناحـية النظرية أن يتحلى إلى جانب فضـيلة الشجاعة واحتقار الموت بفضـائل معنوية من قبيل الحرص على الشرف والحفاظ عـلى مشاعر الولاء والمبادرة للتطوع فى الحروب التى وصفتـها الدوائر الدينية «بالحروب المقدسة»، والسـعى لإعلاء اسم سيدته المحبوبة. وقـد أضافت المؤسسات الدينية مـهمازا جديدا هو الوعد بالفـردوس لمن يموت فى سبيل قضية دينية. وبهذه الطاقة القتالية المشاغبة الكامنة فى أجسام أشبه ما تكون بأجسام حيوانات الغابة لجـأ ملوك الإقطاع والبابوات إلـى إطلاق فرسـان أوروبا على أراضى السـلاف والجنوب الإيطالى



وجزيرة صقلية وإسبانيا وعلى الأراضى البيزنطية وآسيا الصغرى ثم فى حروب العدوان الصليبى على الأراضى المقدسة. وكانت هذه الحروب سبيلا من سبل امتصاص الطاقات القتالية المدمرة التى تعتمل داخل هؤلاء الفرسان. كذلك لجأت الكنيسة فى الغرب اللاتينى أو الفرنجى إلى فرض أيام معينة يحرم فيها القتال، وعرفت هذه الأيام باسم «هدنة الله» (Turga Dei)، وعرفت أيام أخرى باسم سلام الله (Pax Dei) وهى أيام الأعياد والمناسبات الدينية المختلفة.

والحق أن فرسان القرن الحادى عشر كانوا على درجة بالغة من الخشونة وفظاعة الطبع؛ فهم يشربون حتى الثمالة، وكانت قلاعهم غاصة بالنساء الفاسدات. وإذا خسر أحدهم جولة فى إحدى مباريات الشطرنج مثلا فقد يبارز ضيفه حتى يجرحه، وإذا تباطأ الخادم فى إحضار كأس من الشراب فقد يرشقه برمح نافذ، وإذا ضايقته زوجته بالثرثرة فإنه يضربها فى قسوة بالغة. كذلك كان الفارس يحتقر أبناء الطبقات الدنيا من الفلاحين احتقارا شديدا، ولا ينظر إليهم كآدميين مثله لأنهم - وفق مفهومه - لا يجيدون فن القتال (Imbellis)، وهو فى نفس الوقت وبنفس القدر يزدرى طبقة التجار لأنهم يجمعون ثرواتهم من مهنة شبيهة بالربا!

القلاع

كان الفارس يسكن فى قلعة حصينة تحيط بها عن قرب أكواخ الفلاحين العاملين على أرض الضيعة. وكانت القلعة فى أول الأمر على شكل برج خشبى يضم حجرة كبيرة للنوم فى الطابق الأول، بينما خصص الطابق الأرضى كمخزن للمؤن. وحول البرج يوجد الخندق الذى يحيط به من الخارج سور ترابى يليه خندق آخر. أما المطبخ فكان يقع فى حيز خارج بناية البرج خوفا من اندلاع الحرائق. وبمرور الوقت لجأ الفرسان إلى استخدام الحجارة كمادة بناء لقلاعهم بدلا من الخشب. وكان البرنامج اليومى للفارس يبدأ فى الصباح الباكر بالرياضة والصيد فى الغابات. وقد أعد الفرسان إعدادا خاصا بقصد تلقينهم فى قلاع السادة قواعد السلوك وآداب المعاملة (Courtoisie)، وهى كلمة مشتقة من لفظة «Court» أى «البلاط» الخاص بالسيد الإقطاعى والذى كان بمثابة المدرسة الأولى التى يتلقى فيها الشباب من أبناء تلك الطبقة أساليب التعامل وسلوكيات النبالة. وقد ولدت هذه الكلمة فى بلاط سادة الجنوب الفرنسى، ثم نقلها الإيطاليون عن الفرنسيين فى أوائل القرن الحادى عشر، ثم انتقلت بعد ذلك إلى ألمانيا وعرفت هناك باسم «Hofklich». هذا، وقد وفد كثيرون من أبناء النبالة الألمانية على القلاع الفرنسية ليتعلموا تلك الآداب السلوكية، وقد لعبت مدن شارتر وباريس دورا هاما فى تجسيد معانى السلوك الفروسى المهذب لدى أبناء الطبقات العليا. ويرتبط بهذا السلوك موقف أبناء هذه الطبقة تجاه المرأة النبيلة؛



فلقد ظهـرت فى فرنسا طبـقة من «سيدات الصـالونات» عرفن بعشـقهن للأدب والشعر والفـن وملاحم الفروسية، وأصـبحت شهرة أو سـمعة الفارس القـتالية والسلوكية تحدد فـى تلك الصالونات، ولقد حرص مشاهير الـفرسان على إثبات جدارتهـم وتأكيد قـوتهم حتى تذكـر أسمـاؤهم على ألسنة رواد هذه الـلقاءات النسائيـة مقرونة بالإعـجاب والاحترام. ومن هنا كـان اهتمام الفـرسان بالأدب والشعر وخـاصة الغزلى منه. ورائد تلك الحركة هـو الدوق وليم التاسع صاحب أقطانيا (ت ١١٢٧م)، الذى كان عاشقا ومشجعا للشعر والغناء والطرب.

ثم جاءت مـارى كونتيسـة إقليم شامپانـى (١١٤٥ ـ ١١٩٨م) وهى ابنة لويس السابع ملك فرنسا من زوجته إليـانور وريثة أقطانيا وصاحبة السجل الحافل من المغامـرات، وقد جسدت مارى فى شخصها وحاشيتها أفانين الشعر الطروبادورى وقصص الغرام ونقلت هذا كله معها إلى عاصمة زوجهـا فى مدينة تروى (Troyes). ومن هذه البلدة الأخـيرة شاعت مـلاحم البطولة الفرنسـية وقصص الغرام لتعم كل أرجاء أوروبا الغربية. وقد أنجبت تروى شاعرا مرموقا هو «كريتيان» الذى نظم العديد من قصـائد البطولة والغرام، والذى كان ينشد قصـيده على مسامع الفرسـان وسيدات قلوبهم دون خجل أو تورية. ولقـد عرف بلاط مارى دى شـامپانى ألوانا من الحب العذرى وغـير العذرى جميعا، فأصبح الفارس الذى ليست له عـلاقة غرامية بواحدة من سيدات الصالونات ليس أهلا للقب الـذى يحـمل شـرفـه على نصل سيفه. وقد لعبت المرأة الفرنسية دورا كبيرا فى إشعال نار المبارزات بالسيف، كما كان لها دور فى إطلاق الصقـور فى رياضة الصـيد، وهى أيضا ضيفة الشرف بين المشاهدين فى حلبة المبارزة. وبـاسم هذه المحبوبة أو تـلك كان الفـرسان الشجـعان يحـطمون رماحـهم وقسيهم ثم قلوبهم أيضا!

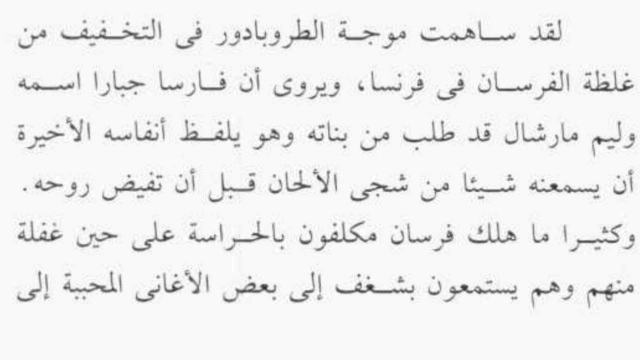


المبارزة





إطلاق الصقور



لقد ساهمت موجة الطروبادور فى التخفيف من غلظة الفرسان فى فرنسا، ويروى أن فارسا جبارا اسمه وليم مارشال قد طلب من بناته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن يسمعنه شيئا من شجى الألحان قبل أن تفيض روحه. وكثيرا ما هلك فرسان مكلفون بالحراسة على حين غفلة منهم وهم يستمعون بشغف إلى بعض الأغانى المحببة إلى



الحفلات داخل القلعة

نفوسهم. ولقد عرف العصر كثيرين من أبناء هذه الطبقة ممن انغمسوا فى الملذات، وإن كانت الملاحم تصنع المسئولية فى ذلك على «ضعف النساء» وليس على نزوات الفرسان. كذلك لم يكن بعض السادة فى القلاع يجدون حرجا فى أن يقدموا لضيف مرموق إحدى الفتيات الجميلات لمؤانسته وإدخال البهجة على قلبه. وواقع الأمر أن مجتمعا مثل هذا المجتمع الذى كانت الزيجات فيه تتم وفق المصلحة أو الصفقة لم يكن يعرف كثيرا الزواج الناجح؛ لذا فإن البديل لهذه العلاقة الزوجية «الكريهة» كان فى اتخاذ المحظيات والخليلات، ونحن نعلم أن قلاعا كثيرة كانت غاصة بالأبناء اللقطاء، كما أن بعض أغانى الطروبادور تخاطب الغرائز الفجة والحب الحسى الذى قيل أنه كان يتم حتى فى مخازن السلاح بل وفى حظائر الخيول!

على أنه إلى جانب الحب الحسى ظهرت أشعار كثيرة فى الحب «العذرى» أو الأفلاطونى، وهو علاقة لا تمت بصلة إلى العلاقات الزوجية؛ لأن المحبوبة هنا سيدة متزوجة، ولن يكون العاشق لها زوجا فى يوم من الأيام. وهذا الحب «الأفلاطونى» ينصب دوما على سيدة من الطبقات الأعلى فى سلم النبالة، وهو حب من النوع «المحرم»، حيث تظل إمكانية الوصال مجرد سراب مستحيل. وهذه المحاذير التى تحول دون تحقق هذا العشق هى التى فجرت عند الشعراء صورا من الوله والصبابة ودفوف الأحزان عند جماعة الطروبادور. وعندما يشحب الأمل فى تحقيق هذا الحلم يتولد فى النفس إحساس بلذة هذا «الحلم المستحيل»، وهكذا اتخذت هذه العلاقة بين العاشق الولهان والمحبوب بعيد المنال أبعادا أشبه ما تكون بتلك العلاقة بين الفصَّل وسيده الإقطاعى. وقد انتقل هذا الشعر الرومانسى من فرنسا إلى ألمانيا، حيث عرف باسم (Minnensang).

بقى أن نذكر عن هذه الطبقة أن بعض كبار الفرسان أو البارونات كانوا يتمتعون بثراء فاحش؛ فقد أصدر أحد السادة فى منطقة الليموزين بفرنسا أمره بأن تحرث أرضه ثم تبذر بقطع من عملة الفضة، كما أن بارونا آخر أمر بإعداد الطعام لضيوفه على نار الشموع، بينما قام سيد ثالث بإحراق ثلاثين من ثيرانه دفعة واحدة فى واحدة من احتفالاته!

وهذا الثراء الفاحش كان بطبيعة الحال من عرق ودم رقيق الأرض من جماعة الأقنان (Serfs) الذين ما كانوا يجدون ما يسد الرمق. وفى منتصف القرن الثانى عشر ظهر اتجاه نحو إضفاء صيغة قانونية على أبناء الطبقة الأرستقراطية بهدف تثبيت حق الوراثة فى عروق أبناء هذه الطبقة، ومنذ ذلك التاريخ ظهرت كلمة «جنتلمان» أى شخص من جنس (Gens) نبيل عن طريق الوراثة. وكان هذا الصك الاجتماعى يتم وفق طقوس خاصة تقام عندما يتخرج الشاب النبيل من تدريبه ليقُلد فارسا. وجدير بالذكر أن أبناء هذه الطبقة كانوا يستخفون كثيرا بالطبقة البورجوازية

من أثرياء المدن الجديدة وغالبيتهم من التجار، ولذا فإن البارونات لم يتورعوا عن قطع الطريق عليهم وتجريدهم من تجارتهم التى يكدسون وراءها ثروات دون عناء حرب أو قتال.

الأقنان

هذا عن السادة، أما عالم العبيد فهو مختلف تماما؛ ففالح الأرض فى العصور الوسطى له عدة أسماء، فهو قنى (Serf) وهى كلمة مشتقة من كلمة «عبد» (Servus)، وهو أيضا «بروليتار» (Proletarius) وهى كلمة لاتينية تعنى ذلك الشخص الذى ينتمى إلى الطبقات الدنيا فى المجتمع، وهو أيضا «ڤالين» (Villein) بمعنى الأجير المرتبط بفلاحة الأرض ولا يبرحها أبدا. وكان الأقنان يؤلفون الغالبية العظمى من سكان غرب أوروبا فى عصر الإقطاع، وقد ارتبطوا بالأرض الزراعية فى القرى والكفور والضياع (Manors). وكانت كل قرية أو ضيعة تخضع لسيد واحد، ويحتجز السيد الجزء الأكبر من الأرض لتزرع لصالحه، وهو الجزء الذى عرف فى مصطلح العصر باسم «الدومين» (Demense)، بينما قسم الجزء الباقى إلى شرائح صغيرة ومبعثرة يقوم الفلاحون بزراعتها لحسابهم مقابل خدمات والتزامات ثقيلة وضرائب عينية أو مادية؛ غالبا ما كان الفلاح لا يجد بعد سدادها ما يسد رمقه وأطفاله. غير أن القن لم يكن عبدا بالمعنى الذى نعرفه عن العصر اليونانى الرومانى، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن أيضا فى عداد الأحرار، فهو بين بين، بمعنى أنه لا يباع ولا يشترى، وإن كان لا يسمح له بحمل السلاح أو أن يمثل أمام المحاكم كواحد من المُحلَّفين. وكان القن رهن إشارة سيد الأرض، ولا يمكنه أن يبرح تلك الأرض فهو أشبه ما يكون بعبد للأرض نفسها. وفى مقابل استغلال شريط ضيق على هامش أرض الضيعة كانت على القن التزامات غاية فى القسوة، فعليه ضريبة سنوية عن هذا الشريط، وعليه ضريبة الرأس (Cens)، وضريبة العشور للكنيسة (Dime)، وعليه العمل سخرة ثلاثة أيام أسبوعيا فى أرض السيد (Corvée)، كما أنه يدفع ضريبة مقابل استخدام طواحين ومعاصر السيد، وأخرى لكى يسمح له بعبور قنطرة الناحية، ومن الأمور المفجعة أنه كان على القن أن يتنازل عن الليلة الأولى من زواجه لمتعة السيد (Ius Primae Noctis). وقد ظل هذا الجرم معمولا به فى جهات مثل باڤاريا حتى القرن الثامن عشر!

وبينما يتلقى الفرسان (البارونات) إقطاعياتهم من السادة الأعلى فى سلم النبالة برمز السيف فى حفل مهيب، كان يسمح للقن بزراعة الأرض الهزيلة على الأطراف وفق رمز يدل على المهانة والمذلة وهو رمز «الشوكة والسوط» (Furcam et Flagellum). ومن الناحية النظرية كان على القن أن يؤدى للسيد كل ما يؤمر به، وليس له أن يعلم فى يومه شيئا عن أمر غده. ويبين لنا «الكتاب الأسود» لمقاطعة «بيتر بورة» بإنجلترا الذى ظهر ما بين أعوام ١١٢٥ ـ ١١٢٨م الواجبات التى كانت على القن فى تلك الناحية تجاه السيد؛ وهى تتضمن الخدمة فى الأرض على مدار



فصـول السنة، ودفع ضريبته عن شـريط الأرض الذى يفلحه لصالحـه، وتقديم خمـسين دجاجة وستـمائة وأربعين بيضـة، والعمل فى المرعى لرعاية حـيوانات السيـد، وتقديم حمل من الخشب، والمشـاركة فى غسل وجز صـفوف الأغنام. وكـان على زوجة القن وأولاده الصـغار أن يعـاونوه فى أداء مـا يطلب منه من خدمات للسيد.

ولقد وُجدَ عـدد قليل من الفلاحين الذين كانوا أقل تعـاسة من الأقنان، وهؤلاء إما أنهم كانوا يعملون على وسايا تابعـة للتاج مباشرة (Terra Regis)،

حياة الأقنان



أو أنهم كانوا يزرعـون شريحة من الأرض دون تبعيـة واضحة لسيـد بعينه. وقد احـتفظت هذه الفـئـة القليلة من الفـلاحين بشيء من الحـرية ولكن في مكابدة شديدة. وفي الطرف الآخر كانت هناك فئة أشد تعاسة من الأقنان، عرفوا أحيانا باسم «البـورداري» (Bordarii)، وأحـيانا أخـرى باسم «كـوتاري» (Cottari) وهؤلاء هم أرباب الأكواخ التعسة التي كانت شـبيهة بحظائر الحيوانات، والذين كانـوا يقتـاتون على ما يتـساقط من أيدي بعض الفـلاحين الأحرار في مـواسم الحصـاد. وأبناء هذه الفئة من المعـدمين يؤجرون أنفـسهم لمن يقدم لهم مـا يسد أودهم فحسب. وإلـى جانب هؤلاء وأولاء كانت القرية الإقطاعـية تعرف فئـات من رعاة الأبقار (Vallarii)، ورعاة الأغنام (Bercarii)، ورعاة الخنازير (Porcarii)، هذا إلى جانب حداد القرية والنجار.

ولما أن ازدادت الأخطار الخارجيـة في شكل الغزوات المتبربرة المتأخـرة، ولما أن ضعف نفوذ الملوك واشتعلت الحروب الإقطاعية، اضطر الفلاحون الأحرار الذين كانوا يفلحون أرض التاج إلى الخضوع لضغوط وسطوة السادة المحليين، وتحـولوا إلى أقنان بنفس الالتزامات التي سبقت الإشارة إليها.

وعندما اكتـمل الهرم الإقطاعي في القرن الحادي عشـر، انقسم الناس في غرب أوروبا إلى قسـمين واضحين: الحـر وغير الحـر. والحر هو الذي يملك أرضـا ويحمل سلاحـا وله «وضعـية اجتماعية» (Status)؛ أما غير الحر فليس له وضعية شـرعية واضحة، فهو لا يجلس في المحاكم ولا يعتد بشهادته ولا يسمح له بحمل السلاح، وعليه أن يدفع ضريبة الرأس، ولا يحق له الزواج من امرأة حرة، وهو مـربوط بالأرض لا يبرحها. وقد صار للـسادة حينذاك الحق في شنق الأقنان على بوابات قلاعهم؛ ولذا فـإن السادة كانوا يعلقون على مداخل قلاعـهم عددا من المشانق دلالة على نفوذهم وسلطانهم.

النشاط الثاني إلى جـانب الفلاحة في القرية كان الرعـي، وكانت الأبقار والأغنام والخنازير تعتـمد في مرعاها علـى نطاقات من البراري والأحراش وأطراف الـغابات. ولم يكن حق المرعى مطلقا للفـلاحين، وإنما كان يحدد لكل فلاح عـدد الأبقار والأغنام التي يحق لها المرعى بـقدر ما يفلحه هذا الفلاح أو ذاك من مساحة من أرض السيد، إلى جانب دفع ضريبة عن هذا المرعى.

وبعد موسم الحصـاد كانت تزال الأسوار المحيطة بالأرض الزراعية لكي تطلـق عليها الأبقار والأغنام للرعي حتى يحل موسم إعداد الأرض للنوبة الزراعية التالية. كذلك كانت كل قرية تبقى

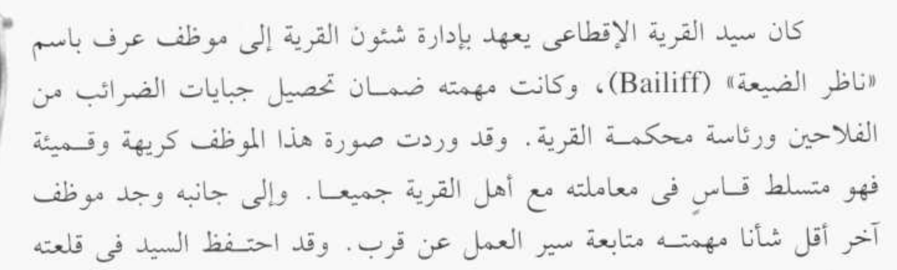
على نطاق من الأرض يخصص للحشائش التى تجمع وتخزن، وبعدها يسمح لحيوانات القرية بالمرعى على بقايا وجذور تلك الأعشاب، وكان هذا يتم بين شهرى أغسطس وفبراير من كل عام، وكان على جميع فلاحى القرية أن يدفعوا للسيد ضريبة مقابل ذلك عرفت باسم «حق العشب» (Herbogium). ولما أن بدأ استصلاح الأراضى على حساب الغابات والمرعى، باتت الثروة الحيوانية فى غرب أوروبا مهددة بالخطر، وقد وضحت الخطورة بشكل صارخ فى إنجلترا فى القرن الثانى عشر، فنحن نعلم أن مساحة قرابة ١٥,٠٠٠ فدانا من المرعى من مقاطعة لنكولن قد حولت دفعة واحدة إلى أرض زراعية، وقد نتج عن هذا التحول ذعر شديد، وأخذت الأبقار والأغنام تهيم على وجهها بل وتعتدى على الأراضى الزراعية. والأهم من هذا أن معدل ما أصبحت تدره البقرة من لبن على مدى أربعة وعشرين ساعة أسبوعيا قد تدنى ليحقق ثلاثة شلنات وست بنسات فقط!

وقد كانت الأغنام بوجه خاص مصدر رزق طيب للفلاح، إذ إن تربية مائة منها كان يضمن ربحا سنويا قدر وقتها بجنيه كامل، كما أن جلود الأغنام كانت سلعة مطلوبة لاستخدامها فى صنع رقائق الكتابة (Parchment)، وكذلك عرف عن أهل العصور الوسطى حبهم لجبن الضأن. وقد قدر كاتب من القرن الثالث عشر ما تدره عشرون من الأغنام بنفس القدر الذى تدره بقرتان حلوبتان وهو ما يعادل ٢٥٦ رطلا من الجبن ونصف دن من الزبد فى الأسبوع الواحد. وقد زودتنا سجلات العصر بأسعار رءوس الثروة الحيوانية، فقد كان الثور يباع بثلاثة شلنات، ورأس الضأن بأربعة بنسات، والبقرة بشلن واحد وثمانية بنسات، والخنزير بثمانية بنسات.

وفى أواخر القرن الثانى عشر عندما أزيلت الغابات والمراعى لزيادة الرقعة الزراعية، شحت المراعى فشهدت الأسواق ارتفاعا فى أسعار الثروة الحيوانية بما يعادل نصف الأسعار السابقة.

وفى بداية عصر الإقطاع كان إنتاج القرية يستهلك محليا، ولكن مع تطور الأحوال والأوقات وزيادة الرقعة الزراعية عرفت منتجات القرية طريقها إلى أسواق المدن المجاورة. وقد فرض السادة على الفلاحين ضريبة لنقل بضاعتهم على عربات خاصة عبر طرق وعرة إلى أسواق المدينة. وكان على القرويين بين الحين والآخر إمداد السادة وحامل التاج أيضا بمنتجات القرية إلى أماكن نائية جدا؛ فمثلا كان على بعض القرى فى سنة ١١٧١م أن ترسل ثلاثة آلاف شحنة من القمح إلى أيرلندا، حيث كان الملك الإنجليزى يحارب فى هذه الجزيرة؛ وفى سنة ١١٨٩م فرض على قرية كنت (Kent) أن تمد القصر الملكى بعدد ١٩٠٠ دجاجة بمناسبة حفل التتويج الملكى؛ وفى سنة ١٢٠٣م فرض على عدد معين من القرى أن تشحن عدد ٢٢١٧ رأسا من الخنازير إلى

بلدة روان (Rouen) فى ولاية نورمانديا، حيث كانت كتائب الملك الإنجليزى تحارب ضد الفرنسيين.



كان سيد القرية الإقطاعى يعهد بإدارة شئون القرية إلى موظف عرف باسم «ناظر الضيعة» (Bailiff)، وكانت مهمته ضمان تحصيل جبايات الضرائب من الفلاحين ورئاسة محكمة القرية. وقد وردت صورة هذا الموظف كريهة وقميئة فهو متسلط قاسٍ فى معاملته مع أهل القرية جميعا. وإلى جانبه وجد موظف آخر أقل شأنا مهمته متابعة سير العمل عن قرب. وقد احتفظ السيد فى قلعته بسجلات دقيقة عن حسابات الضيعة، ومنها نتعرف على قيمة الإيجارات والضرائب ومعدل الإنتاج السنوى للفدان، ودخل محكمة السيد، ومصروفات المبانى والترميمات، وتكلفة حفر الخنادق وبناء الأسوار، وكذلك أعداد قطعان الثروة الحيوانية.

وللسيد محكمة يحاكم أمامها الفلاحين، وهى تعقد مرة كل أسبوعين، ومن خلالها ينزل السيد العقاب بأى فلاح يتحرش بالمرعى أو الغابات أو الثروة الحيوانية، وقد خول السيد لنفسه الحق فى الفصل فى المخالفات التى تعكر صفو «سلام التاج»، ثم أخذت صلاحيات السيد تزداد حتى صارت سيفا مسلطا على رقاب الفلاحين، ثم أعطى السيد نفسه الحق فى تنفيذ أحكامه بنفسه ومن بينها حق الشنق لمن يضبط من الفلاحين متلبسا بالسرقة (Infangenetheof). كذلك جعل السيد من نفسه صاحب الحق فى محاكمة حالات الغش فى الجعة أو التلاعب بأسعارها.

وإلى جانب هذه المحكمة كان لكل مقاطعة محكمة كبرى عرفت باسم «مجلس المائة»، وكان يمثل القرية فيها «العريف» (Reeve)، وكاهن القرية وأربعة من حسنى السمعة. وفى حالة وقوع جريمة قتل فى القرية، كان على الأهالى أن يبلغوا عنها وأن يقبضوا على الجانى بأنفسهم لتقديمه للمحاكمة. وإذا فشل الأهالى فى ذلك يتعرضون لطائلة قانون الحفاظ على سلام الملك، وفى هذه الحالة لم يكن العقاب يحل على فلاح بعينه وإنما كان العقاب جماعيا على أهل القرية جميعا فى صورة غرامات جماعية تذهب لخزانة السيد وأحيانا لخزانة التاج.

من الشخصيات الجديرة بالذكر فى القرية كاهنها، ففى كنيسة القرية التى تخضع هى والكاهن للسيد، وفى صحن هذا البيت الدينى كان الفلاحون يجتمعون أيام الآحاد للصلاة، وفى أيام الأعياد للاحتفال، وفى أيام المواسم السنوية، وكانت الأسواق أحيانا تقام فى رحاب كنيسة القرية. وقد عرف عن كاهن القرية أنه كان ضحل الثقافة بشكل يدعو إلى الأسى، وقد وصف بأنه كان أقل جهلا بقليل عن سائر الفلاحين. وهو إلى جانب قيامه بواجباته الدينية من إقامة شعائر الصلاة والوعظ ومراسيم العماد والزواج والجنازات، كان طيلة الأسبوع يعمل فى الحقل بفأسه

كسائر الفلاحين، وفى كثير من المناطق كان على كاهن القرية أن يعمل يوما كل أسبوع فى فلاحة أرض السيد سخرة. ولعل الامتياز الوحيد للكاهن أنه كان يحصل على شريط من أرض القرية بلغ ضعف الحصة التى كانت لبعض الفلاحين المميزين فى القرية. وكان على كاهن القرية واجب آخر هام؛ فهو المسئول عن «عجل» القرية لتهجين الأبقار، وعن «كبش» القرية لتهجين الأغنام، وعن «جواد» القرية لإخصاب إناث الخيول. وقد عرف عن الكاهن أيضا إلحاحه الدائم على التبرعات ليصلح من حال الكنيسة وليرسل إلى خزانة الأسقفية التى تتبعها القرية نصيبها المقرر، وكان هذا يشمل فيما يشمل البيض والدجاج وغيرها من منتجات الريف. ثم جاءت ضريبة «العشور» (Tithe) فشملت كل المحاصيل والثروة الحيوانية والأصواف والجبن والزبد والعسل والفاكهة.

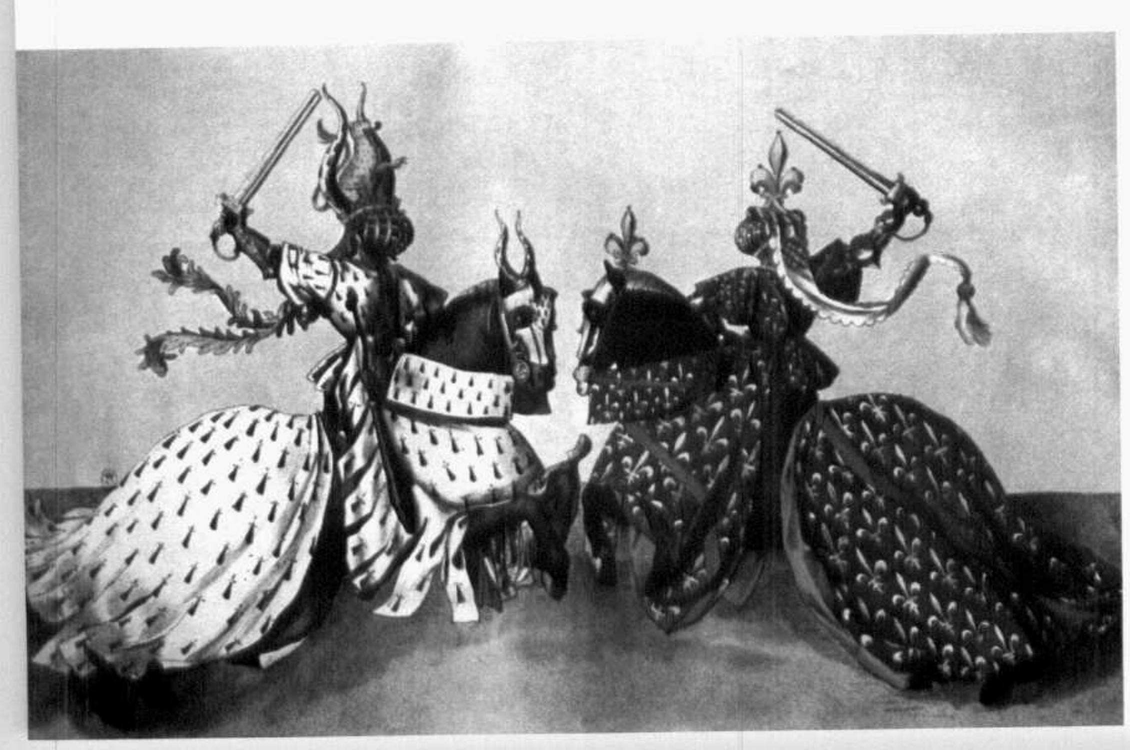


النبش فى قبور القديسين

الأعياد

ولقد ارتبطت الأعياد والاحتفالات الدينية فى مختلف القرى الأوروبية بعادات وثنية قديمة لم تفلح الكنيسة فى تخليص الناس منها. ولفهم روح هذا العصر لا بد من فحص الدلالات فى لغة التخاطب المحلية العامية وفى محتوى الصلوات الفردية والجماعية، وفى اعترافات المصلين عن ذنوبهم، وفى أفكارهم عن المعجزات، وفى قصص الجن والعفاريت، وفى ما قد يتساقط من على

موائد الصفـوة المتعلمة (Docti) لكى يلتقطه ويلوكه البـسطاء من غير المتعلمين (Idiotae). ومن هذا المنبع الأخير يمكن للمرء أن يقـول بأن تبعية - إن لم يكن رق - الفلاحين اقتصاديا وسياسيا قد أضيفت إليهما تبعية أخرى فى عصر الإقطاع وهى التبعـية العقائدية، فالمعـروف أن السلطات الدينية عمدت إلى عـدم ترجمة بعض النصوص الدينيـة إلى اللهجات المحليـة كى تحجبهـا عن بسطاء الناس إما لصعوبة إدراك مغزاها وإما لكى تبـقى حكرا عليها، وعلَّل كبار رجال الدين هذا الموقف بأن العامة يخـلطون بين القديسين والأنبياء وبين أبطال الملاحم الجـرمانية القديمة. والحق أن عامة الناس كـانوا شديدى الإعجاب بقصص البطولة القديمة أكـثر من إعجابهم بسير القديسين. ويروى الراهب الألمانى سيزاروس من هسترباخ كيف أنه ذات يوم كان يعظ جماعة من الرهبان، فلاحظ أن المَلَلَ أخذ يتسرب إلى نفـوسهم إلى حد أن بعضهم راح يغط فى النوم بل وفى الشخيـر، ولكى يوقظ هؤلاء من غفلتهم ونعاسهم عمـد إلى تغيير موضوع مـوعظته هاتفا: استمعوا أيها الإخوة إلى وأفيقوا إلى حكاية جميلة - كان ياما كان فى ماضى الزمان ملك أسطورى اسمه آرثر سيد فرسان قومه الذى طبقت شهرة مائدته المستديرة كل الآفاق. . .إلخ. وعلى التو تنبه الحضور وأفاق الجميع واشرأبت الأعناق وأرهفت الأذان لسماع بقية الرواية عن الملك آرثر وزوجته الفاتنة چونيڤير وعاشقها الفارس لانسلوت. ثم توقف الـواعظ فجأة عن الاستطراد فى قصة آرثر وصرخ فيهم قائـلا: «أرأيتم أيها الرهبان كيف أن الحديث عن الأمور السماوية لا يثـير انتباهكم، بينما الحديث عن الدنيويات ومفاسدها يوقظكم من السبات العميق؟!».



مبارزة

والحق أن إنسان العصور الوسطى لم يكن يفهم التجريد، وعليه فإن المعانى الروحية كانت فى حاجة ماسة إلى شىء ملموس وحسى لإدراك فحواها. ولم يكن التصور الشعبى ندا للمحسنات البلاغية والمجاز والكناية والرمز اللفظى، وليس بمستغرب أمام هذا أن لجأ رجال الدين إلى الأيقونات والتصاوير والتماثيل كوسائل تعليمية لعامة الناس. وقد سرى المثل الشعبى فى تلك الأوقات بأن «الرب ليس حريصا على قواعد اللغة بقدر ما هو حريص على قلوب الناس وسرائرهم». وليس غريبا أيضا أن عددا غير قليل من كتاب الحوليات فى العصور الوسطى كانوا يفاخرون بفجاجة أسلوبهم وبقصورهم فى البلاغة والآجرومية. فمثلا يعترف جريجورى أسقف تور مؤرخ الفرنجة أنه لا يدعى علما فى الأدب والأسلوبية، وبأنه كاتب بسيط لا يجيد الحزلقة، متسائلا عن الحكمة فى اختيار المسيح لحوارييه من صيادى السمك البسطاء وليس من الفلاسفة.

كذلك اضطر وعاظ العصر إلى تبسيط عظاتهم كى تتوافق مع البيئة والمزاج الشعبى؛ فمثلا وجد سيزاريوس من آلس نفسه فى إحدى مواعظه ينصح المصلين بالاقتصاد فى نشاطهم الجنسى، موضحا لهم بأن العلاقات الزوجية قد شرعها الله للتناسل وإعمار الأرض بنسل صالح، وعليه فإن النهم الجنسى غير محبب، مثله فى هذا مثل الحقل الذى إن أجهدته بالحرث والبذر تباعا فى موسم واحد أُرهقت التربة وجاء الحصاد هزيلا!

هذا، وقد أعطى أهل العصر للأرقام دلالات غيبية؛ فرقم ٤ هو رقم الاتزان والاستقرار؛ ورقم ١١ هو رقم المرض والعجز واقتراب الموت، وكذلك شاعت فى العصر روايات متعددة عن غرائب الكون؛ من قبيل ذلك تلك الرواية عن ذئب هجم على إحدى القرى واختطف صبية إلى الغابة لكى تقوم بانتزاع عظمة من حلق ذئب آخر، وبعد قيام الصبية بالمهمة الوعرة أعادها الذئب على ظهره سالمة تماما. وقد كثرت أيضا القصص عن الشياطين وألاعيبهم وشباكهم، وعن النساء اللائى يلدن مخلوقات مشوهة بسبب مضاجعة الشياطين، وعن حبائل اليهود لتدنيس القربان المقدس، وعن امرأة سمعت محادثة مفهومة بين بعض الديكة والفراريج، وعن القروى الذى عثر على شجرة تثمر أحذية بدلا من الفاكهة! وفى مجتمع كهذا فرض رجال الدين كفارات عدة على الناس حتى يحدوا من هذه الهلوسات وعواقبها الوخيمة، وكانت الكفارة تشمل الصلاة والصيام والطرد المؤقت من القرية، وبات لكل خطيئة كفارة تغسل أوزارها. وقد سمحت بعض الأروقة الدينية للمذنب أن يستأجر شخصا آخر ليقوم بالصيام بدلا منه (Justus)، وكان على المقتدر من الناس أن يدفع عشرين شلنا للصائم المستأجر، أما الأقل غنى فكان يدفع عشرة شلنات، والأدنى من ذلك ثلاثة شلنات فقط. ومن الكفارات أيضا الحكم على الآثم بأن ينام لفترة محددة فى جوف



أحد القبور بجوار جثث الموتى، أو أن يجلد نفسه بالسوط عدة مرات، أو أن ينزع من فروة رأسه اثنتى عشرة شعرة!

هذا، وقد كان اعتقاد الناس فى الأولياء والقديسين شديدا فى العصور الوسطى؛ ولهذا فقد حرصوا على اقتناء رفاتهم ومخلفاتهم ورماد قبورهم، وقد كان هذا سببا فى رواج الاتجار بآثار القديسين، بل إن سرقة رفات القديسين باتت أمرا منتشرا ليس فقط بين العامة، وإنما أيضا بين كبار رجال الدين أنفسهم، وقد وصل الأمر إلى أن البعض قد جاهر بأن قتل أحد القديسين لا حرج فيه؛ وذلك لضمان دفن رفاته فى هذا المكان أو ذاك للتبرك به وبكراماته! ويروى عن أهالى جبال أومبريا الإيطالية أن أحد الصالحين هناك قرر فجأة هجران المنطقة والاعتزال بعيدا فى ركن قصى، فانزعج أهل المنطقة وتصايحوا: «إن كان يصعب علينا الإبقاء عليه معنا حيا، فلنبقه معنا مقتولا». هذا، وقد خصَّ العامة هؤلاء الصالحين والقديسين بصفات وكرامات دقيقة التخصص، فهذا يعين على الشفاء من أمراض الجلد، وذاك للعيون، وثالث لأمراض المعدة، ورابع للجهاز التنفسى وهكذا، بل إن هناك من خُصوا بالمقدرة على طرد الفئران من المنازل! ومن حكايات العصر ونوادره أن ذئبا هاجم أحد الصالحين وهو فى الطريق وابتلع حماره، فلعنه القديس وكبله ثم سخره ليقوم بأعباء الحمار الضحية، وصار الذئب المتوحش مطية ملجمة طيعة يؤدى للرجل واجبات الحمار القتيل!

كان طبيعيا فى هذا المحيط الغيبى أن يظهر العديد من المشعوذين والأنبياء الكذبة، ومن هؤلاء واحد وفد من إسبانيا إلى مدينة تور الفرنسية وهو يقود ثلة من العوام والساقطات من النساء، وعند القبض عليه عثر فى حقيبته على جذور نباتات، وأسنان موتى، وعظام فئران، ومخالب قطط وأشياء أخرى غريبة. ويجب أن نلاحظ فى هذا الصدد أن الكنيسة الرومانية كانت لا تمانع فى التبرك بآثار القديسين الذين تعترف بهم رسميا، ولكنها حرَّمت ما دون ذلك فى الأوساط الشعبية ودمغته بالهرطقة أو السحر الشعبى (Maleficium).

وقد اعتاد الناس عندما تحل ضائقة أو نازلة بناحيتهم أن يهرعوا إلى مقبرة وليهم يستصرخونه للنجدة، وإذا لم تنقشع الغمة فإنهم يقتحمون مقبرة «الولى» ويطرحون رفاته أرضا وينثرون الأشواك على عظامه ويتطاولون عليه سبا وتقريعا!

أما عن سلوى الفلاحين فى القرية فكانت تتمثل فى حفلات الرقص فى الخلاء أو مشاهدة صراع الثيران والديكة، أو التزحلق على الجليد، أو شراب الجعة حتى الثمالة أو الجلوس لاستماع النادر من القصص والحكاوى والطُرف.

شهد القرن الثانى عشر اتساعا فى رقعة الأرض الصالحة للزراعة بعد أن أزيلت الغابات، ولكى يُرغب السادة أصحاب هذه الأراضى الفلاحين وفى العمل عليها اضطروا إلى أن يبرموا معهم مواثيق مكتوبة تحتوى على شروط أفضل من ذى قبل، وفى فرنسا أصبحت كل قرية تحصل على مثل هذا الميثاق تعرف باسم «القرية الجديدة» (Villeneuve).

هذا، وقد ساعد تداول العملة فى تمكين نفر من الفلاحين من اقتصاد مبلغ متواضع اشتروا به رقعا من الأراضى من بعض السادة. والعامل الأهم الذى ساعد على تحطيم أغلال القنية هو تلك الثورات التى اندلعت فى كل من فلاندرز وفرنسا وإنجلترا فى القرن الرابع عشر.

ثورات الأقنان

والحق أنه مع ازدياد التعليم فى نهاية القرن الثالث عشر بدأت تسرى فى بلدان غرب أوروبا بعض الأفكار المستنيرة التى تناقلها الناس فأثارت فى نفوسهم فضولا وتطلعا إلى نسمة الحرية. كما أن الحروب التى تتابعت بين الملكيات الإقطاعية قد جرَّت على الفلاحين وبالا شديدا، خاصة تلك الضرائب الثقيلة التى فرضها عليهم الملوك للاستمرار فى حروبهم.

فى فلاندرز

قامت أولى الثورات فى أراضى فلاندرز، واستمرت من سنة ١٣٢٣م حتى ١٣٢٨م، بقيادة زعيم اسمه نيقولا زانكين. وحطَّم الأقنان بعض قلاع السادة وقتلوا بعضهم واعتدوا على نسائهم، ولكن جيشا ملكيا فرنسيا قضى عليهم فى وحشية زائدة.

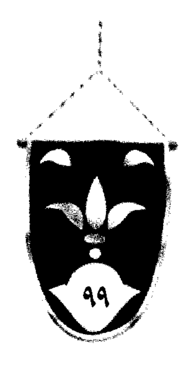
فى فرنسا

ثم اندلعت ثورة الأقنان فى فرنسا سنة ١٣٥٨م بزعامة وليم كال ولقبه «چاك بون أوم» (Jacques Bonhomme) أى چاك «الأبله». وقيل: إن جماعة منهم قامت بقتل أحد السادة وقاموا بشواء لحمه على النار على مشهد من زوجته وأولاده، ثم أمروا الزوجة أن تشاركهم فى تناول هذا الشواء الآدمى لزوجها. وقد قام الجيش الفرنسى بمذابح رهيبة ضد هؤلاء الأقنان وتمَّ قمع الثورة فى وحشية بالغة.

فى إنجلترا

كذلك قام الأقنان فى إنجلترا سنة ١٣٨١م بثورة عارمة ضد السادة الإقطاعيين، وكانوا تحت زعامة والتر تيلور والمصلح الدينى چون بول، الذى راح يشهِّر برجال الدين وفساد ضمائرهم وثرواتهم المتضخمة. ولكن الجيوش الملكية قبضت على چون بول وتم شنقه فى ١٥ يوليو ١٣٨١م، ثم قضى أيضا على والتر تيلور وأتباعه بأمر من الملك ريتشارد الثانى.

ولكن إذا كانت القوى الإقطاعية وعلى رأسها الملوك الإقطاعيون قد نجحوا فى خداع الأقنان وإجهاض ثوراتهم، إلا أن هذه الانتفاضات فى كل من فلاندرز وفرنسا وإنجلترا فى القرن الرابع عشر كانت علامات كبرى على الطريق إلى الانتهاء من جحيم عصور الظلام فى أوروبا!





(1) Augustine (St.), Civitas Dei. (Loeb Classical Library). London, 1965.

(2) Barton, C. A., The Sorrows of the Ancient Romans. Princeton University Press. 1993.

(3) Besnier, L`Empire Romaine de L`Avenement de Séveres au Concile de Nicée. Paris, 1937.

(4) Bloch, M., Feudal Society (Trans. by L. A. Manyon). London, 1961.

(5) Detaillis, C. P., La Monarchie Feodale en France et en Angleterre. Paris, 1933.

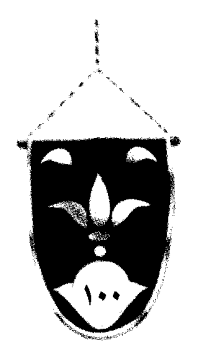
(6) Gurevich, A., Medieval Popular Culture. Cambridge, 1992.

(7) Lane - Pole, A., Prom Domesday Book to Magne Carta. Oxford, 1955.

(8) Owst, G. R., Literature and Pulpit in Medieval England. London, 1937.

(9) Painter, S., A History of the Middle Ages (284 - 1500 A.D.). London, 1966.

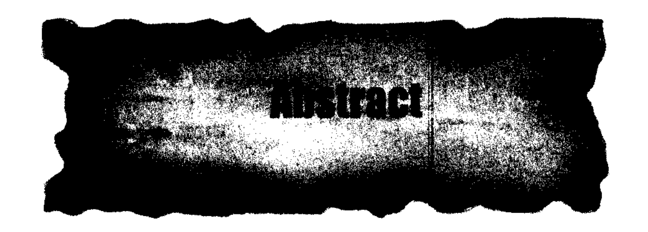
- إسحق عبيد: أوروبا فى بحر الظلمات. دار القلم/ الكويت ١٩٩٥م.



١٠٠



محتويات الكتاب



This book is an attempt to understand the spirit of the Medieval Europe through its main sources, particularly documents, literature, and folklore. The prologue of this book concentrates on the deterioration of the Roman Empire, which came from inside and led to its fall. Then the author presents a brief study to the Germanic and Mongolian tribe's invasion's of the provinces, thus deteriorating the Empire.

During this stage of darkness and declining, a German personality appeared to put an end to such state, This personality was the Great Charlemagne. After the end of the era of "the Carolingian Renaissance", the feudal system spread all over Frankish Europe.

The author highlights the conditions of the Medieval society, which constituted of Castles, Lords and Serfs, and tries to illustrate their every day life, whether in the Royal Courts or in the Castles of the Lords, beside the economic and social status of the Serfs and the ordinary people of this Medieval Society.

Dr. Ishak Ebeid



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

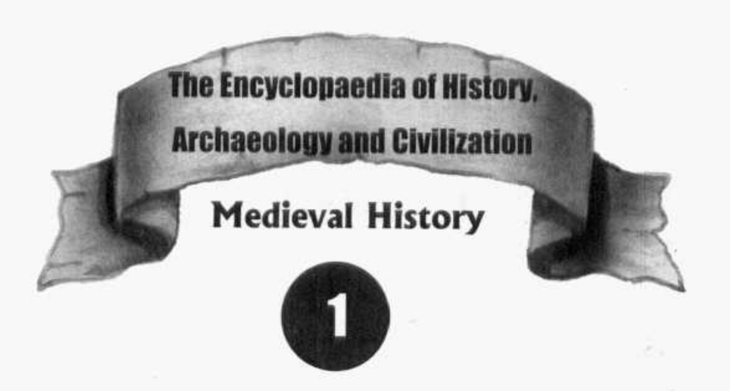
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 2752984 Fax: 2752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com





Europe in the Middle Ages

Dr. Ishak Ebeid

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo
tel : 2752794 . Fax : 2752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com